ديوان قصص

ثمة حارس يفزعه الوقت

إيهاب الورداني

ديوان قصص

ثمة حارس يفزعه الوقت

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

رئيس الإدارة المركزية للنشر
د. سهير المصادفة

الإخراج الفني
سهام عبد الحميد

التصحيح اللغوي
إيمان سامي

ثمة حارس يفزعه الوقت

ديوان قصص

تأليف/ إيهاب الورداني

الطبعة الأولى: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٨

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٥١٠٩(٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦(٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C.: 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الورداني، إيهاب.
ثمة حارس يفزعه الوقت: ديوان قصصي/ إيهاب الورداني. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٨.
١٤٤ ص: ٢٠ سم.
تدمك ٩ ١٩٢٢ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الشعر القصصي ـ مصر.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٦١٤/ ٢٠١٨

I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 1922 - 9

ديوى ٨٠٨,٨١٣

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب.
يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة المصرية العامة للكتاب، أو بالإشارة إلى المصدر

ديوان قصصى

ثمة حارس يفزعه الوقت

إيهاب الورداني

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٨

إهـــداء

«بلدى وإن ضاقت علىّ عزيزة قومى وإن ضنوا علىّ كرام»

***

أهـذي مـجـول الـتي أراهـا أم وجـودي فـي الـوجـوه رمـاد!!

فاتحة

ـ افعل

ـ لا فعل يجدى

ـ آثم إذا استكنت

ـ لا حول لى

ـ ما استحق أن يولد من عاش لنفسه، ورضى بهمه

ـ أعلم

ـ عش إذن ولا عزاء فيك

ـ يا الله

وقتى .. معتم بالوجوه المنهوكة

قلبى .. مثخن بالتاريخ والواقع

عمرى .. المشوش دائمًا

وما ملكت يداى .. مثلكم أنا

أجمع شموسى وأخبئها للقادمين عل وعسى.

هو

وحده يعرف.. وحده يحرس.. منذ أن وطأ قلبه اليابسة.. مفتوح العينين، شامخ كنخلة، مشع وصامد.

لا يعرف من أين جاءه اسمه، ولا أحد اسماه به .. ملامحه تشبه الكثير؛ كأنه أنا، أو كأنه أنت، أو كأننا هو..

غير أنه هادئ كأبله، أو مخلوق من عالم آخر.. تراه حينًا يضحك وحينًا ينهنه .. وحينًا يرسل عينيه فى السماء، يقينًا ليتزود، أو يشكو، أو يرنو، لفضاء كان ساكنه قبل أن يهبط أو يطرد .. لا علم لى..

لكن المؤكد أن ما حوله يعنيه .. وما يراه يضنيه وما يفعله ـ طوعًا أو كرهًا ـ ليس تحريضًا ولا بطشًا، ولا طقسًا يتقنه بقدر ما هو نبوءة أمه حين نثرت وجعها عليه: يا بن بطنى فى عنقك طائرك؛ فلا تجعلهم يصحرون واحتك..

واردعهم مهما تكالبوا عليك.

لماذا أنا..؟!

لماذا أنا..؟!

أنا لم أشأ أن أغضبهم، ولم أفعل ما يضايقهم..

فى الشارع وحدى، لم أتكلم مع أحد، ولم أقابل أحدًا، ولم أستمع إلى أحد وإذا أبصرت أحدًا أغمض عينى وأجرى..

بأقصى ما لدى أجرى..

وحين تنقطع أنفاسى، لا أنظر ورائى، ولا أمامى ولا شمالى، ولا يمينى، أمسح عرقى، وأسحب كميات من الهواء وأعبئها فى رئتى، تكفيننى لمواصلة الجرى مرة أخرى..

لماذا أنا؟!

أنا لم أشأ أن أغضبهم، ولم أفعل...

فى البيت وحدى، حتى إذا اقتربت امرأتى منى مبتسمة ـ وقلما تفعل ـ أسدل عتماتى، وكلما رفعت إحداها، وتجاهد لرفع الأخرى، والأخرى، حتى توشك الدخول فىّ يوقعها الوهن؛ فترمى شحمها جوارى هامدة، وأراها تتقلب.. أظن أننى رأيتها تتقلب جوارى دون أن تلمسنى.

وفى الصباح تستغرب من وجودى وكذلك أنا أستغرب..

ينظر كلانا إلى نفسه دون أن ينبس، وكثيرًا ما نفعل.

لماذا أنا؟!

أنا لم أشأ أن أغضبهم،...

تبًا لى، رأيتهم، نعم رأيتهم.. كانوا عرايا.. فى عز النهار عرايا، غصبًا عنى رأيتهم:

- الخراء فى مؤخراتهم

- المصاصات فى أفواههم

- الحمير - على مقربة منهم - يعلو نهيقها.. ثم ما تلبث أن تتشممهم.

- بعض أشلاء لبقايا آدمية متناثرة - فوق عشب - حتى أرجلهم.

- رائحة صراخ وعويل وأصوات نتنة.

- عشب أو صحراء، مساحات شاسعة تعبرها عواصف شتى، وشمس معتمة، حولها بقع حمراء داكنة باصفرار..

كأن السماء انطبقت، والأرض انشقت أو بقبقت وانفرجت عنهم.

أو كأننى لست هنا..

قلت لهم.. أنا لم أر.. غصبًا عنى.. رأيت..

ورشحت دمًا مما رأيت، كلكم متشابهون، لم أميز فيكم أحدًا بعينه.

أنا ما رأيت أحدًا.. أنا ما رأيت وما سمعت.. تبًا لى.

لماذا ـ إذن ـ أنا؟!

أنا لم أشأ أن..... ودائمًا وحدى.

وكثيرًا أراهم يحاصروننى، أينما كنت يحاصروننى.. الغريب أنا بينهم..

تتشابه ملامحنا حينًا، وتتباين حينًا.. غير أنى لست مثلهم.

ولا أدرى ما يدفعهم نحو محاصرتى بهذا الشكل، ولم أحاول التخلص منهم والابتعاد عنهم.

رأيتنى بينهم هناك، رأيتنى بينهم هنا..

هم دائمًا حولى، وأنا دائمًا بينهم أجرى، وأجرى.

هكذا دون أن أدرى..

أنا وحدى..

فى الصباح وحدى..

فى المساء وحدى..

لم أتضايق ولم أغضب، ولم أسأل أحدًا فيهم عن السبب..

وفى كل مرة قبل أن أجرى أقول لنفسى بعد أن ألم طولى وعرضى:

ـ لا بد أن أعرف.

ـ لماذا أنا وحدى؟!

ـ ولماذا أنا أجرى؟!

ـ ولماذا أنا بينهم وهم يحاصرونني؟!

تهيؤ

قالت: ها هم الآن، غلقوا الأبواب دونك.. وأنا ما زلت ـ بعد ـ ممددة من فرط نهكى.. فيم انتظارك؟!

أى ملامح لى، وما حضورى هذا غير ضباب تشكلنى، قد يكون متماسكًا خوفًا من التفتت، أو مفتتًا تكلس فى إغفاءة.. وحين أنّت:

ـ فيم انتظارك؟

كنت وحيدًا، بلا حجارة، احتويت أعضائى الطينية المرملة، وملأت كفى ونفخت، وإذا بأنفاسى تسيل وتغطى أرضى، وأرانى اقتربت منها، أزرر خوفى وتعاستى.. شحوبها واضح كشحوبى، وغبرة الإنهاك بادية عليها.. لو أنها فتحت عينيها قليلاً.. لو أنها رفعت رأسها.. لو أنها..

ها أنا أستغيث بها، سيدة الرمل والحجارة:

ـ قد غلّقوا الأبواب دونى ودونك.

«هنا كانت دارى».

تزلزلت الدور والبيوت، أخرجت أثقالها، تمايلت الأسقف المنهارة على بعضها، حشرت بين طياتها الأجساد والأوانى ولعب الاطفال، وأفرزت ساحات أشبه بمحاجر أو جبانات أو خرائب.

«هنا كانت دارى»

الدبابات والجرافات، والآلات المجنزرة، وجنود فوق رؤوسهم الخوذات تبدو على البعد غربانًا تنعق..

هل غشيتنى ارتجافة أم فوران الدم هزنى؟

كانت تنظرنى، كأنها فى انتظارى.. تتراكض فى عروقى الملتوية، ودروبى الضيقة طيور الأبابيل، متخمة بالجروح، تضرب الهواء الفراغ .. تتكاسر أمام طلاسم الخوف والخنوع، فى يدها حجارة، فى أرجلها حجارة، فى مناقيرها حجارة.

ركام الأحجار تشكل داري.. فوقها انحنيت ألثمها.. وعصف فى عروقى، يدمدم:

تلك أيامنا البادئات.

وفيما بعد

«.. وفيما بعد، والشمس تنفض عن كاهلها خدرها، وتتمطى، تنبت أنات خافتة، جف دمعها أو تكلس فى شموخ حجرى، وهدوء ممزوج بعويل صامت يطوف بالصحراء، ويغطى مرتفعاتها وانخفاضاتها بخبب العاشق.. تنتبه الرملات للقادم، تلم ساقيها، وتعدل فى هيئتها لتتبدى مثل فرس أوجعها صخب الليل وضجيجه، ورعد على غير ما توقع، ودوامات الريح الثقيلة؛ فتفرد بدنها للنور وتحمحم ـ سادرة ـ للتأهب».

«.. وفيما بعد، ترتفع جدران طينية بلا عرش للسموات؛ كأنها أذرع للأرض تتضرع أو كأنها شواهد قبور لفعل الليل وعلى البعد ـ حولها ـ بعض نباتات لفروع سقيمة مغبرة الورقات، وحفر كثيرة كأنما الأرض هنا بقبقت أو تفجرت».

«.. وفيما بعد، تجلجل ضحكة «تيسير علوانى»[1] كأنها آتية من جب عميق «فوق جناح الصدى..»

يقول: كل ما تم صنعه من أحدث الأسلحة والقنابل يجربونه هنا.. والناس كأنما..

---

(١) «تيسير علوانى» مراسل قناة الجزيرة؛ ثم تكميمه فيما بعد.

ما زالت ضحكته تجلجل من هول الرؤية، والصورة انقطعت، ودخان كثيف غشى الشاشة.. والصوت يقول:

كأنما هم يعيشون الحالة من زمان..

«وفيما بعد ..»

وفيما بعد ...

وفيما بعد

" وفيما بعد، المشهد نفسه يتكرر.. كم مرة ومرة تابعناه

والفرس تحمحم.. ودوامات الريح تصفر..

الرجفة نفسها.. الشهقة.. اللهفة نفسها

الملالة نفسها..

دون أدنى تغيير؛ كأنما للمرة الأولى اشتهاء.

حنين

كأننى أريدها، قلت : «جـ .. مـ .. يـ .. لـ .. ة ..»

لم أدر ساعتها، هل خرج صوتى أم تردد داخلى؟!

لكن المؤكد لى أنها استدارت، وبانت عيناها لؤلؤتين؛ كأنما كهربت المسافة بينى وبينها، ركبتنى الرعشة، وتلجلجت، وتجمع عرقى فى مثانتى فيما يشبه الدفع والتقلص معًا.. ماذا! اعترانى؟! انكفأت نفسى على نفسها، وتوارت مخلفة غصة لا تغيب عن العين.

قلت: لماذا إذن؟

الشعر المطروح على الظهر كأفرع صفصافة، والجسد المشدود الملفوف كجذع، وأنا قناة أسن ماؤها، وغطى سطحها ريم أقرب إلى الغبرة.

ابتسمت، من المؤكد لى ابتسامتها.. رغم أنى لم أرها..

كانت قد عاودت سيرها، وأنا خلفها أنادى: « جـ .. مـ .. يـ .. لـ .. ة..».

أبطأتُ سيرها، تشجعتُ، وحين اقتربتُ، شعرتُ بيدها تحوينى.. وعيناها تتحسساننى؛ فتعالت دقاتى، وازداد دورانى فى فلكها.. وفكرت لحظتها: «أننى الآن يمكننى أن أستظل بها وأتوقف عن الصياح».

ها أنا مستكن فى حضنها المشبع بحنين الظل، والريم أينع.. والماء تحركه الريح..

كان الشارع الكبير طويلاً ومستقيمًا، والناس كعادتهم، يروحون ويجيئون؛ كأنهم معنيون بالزحام ليس إلا..

والطفل الذى فيَّ همد واستنام.

أحسست بشىء داخلى يتفتت، ويكاد صوت تفتته يخرج منى آهة طويلة ممطوطة:

«هل أنا شخصان مختلفان إلى هذا الحد، أم أشخاص كثر يركبوننى وقتما يشاؤون».

كانت تنظر إليَّ بدهشة، وتسألنى، وقد انفرجت سماؤها: «خير يا أبو بسمة».

لجمنى الصمت وتهت، وشاخت بى السنون، وريح شردة تكاد تقتلعنى..

لم أر وجهها، ولا ابتسامتها، هالة من نور كانت..

قلت: «ظننتك هى».

بركان

فرشت عليه نظرتها، والتصقت به: «محتاجة جنيه».

تململ فى جلسته؛ كأنما يرفس ما ألقت عليه: «خير».

ـ مسافرة.

قالتها باقتضاب واستعطاف.

تمادى فى لا مبالاته وسخريته: الجامعة؟!

ـ لأ .. عندنا اجتماع

سريعة، خاطفة وقاطعة؛ كأنما لتنبهه بما لم تقله، وتدوس على سخريته «وجايز أقبض».

اعتدل، ورماها بنظرة كافية ليدرك هول ما فيها..

تعرف أنه لا يملك، ويعرف أنها ـ على قدر ما يمكنها ـ تعينه.. قال بانكسار غلفه بضحكة:

«تصرفى»

سددت نظرتها إليه..

كانت أشبه بقطة برية على مقربة من صحن سمك..

هل كانت فى حاجة ليقول لها: «تصرفى».

انفجرت.. تناثر غضبها شظايا، طالت حياتها وأولادها وعيشتها، واليوم الذى رأت فيه «دنيتها».

قبل أن يعاندها ويسايرها فى انفجارها، هب واقفًا، تهدر جوانحه. لها الحق أن تنفجر؛ كما له الحق فى أن يسايرها.

كم مضى على زواجهما؟! عشرون عامًا. كثيرة هى السنون دونما تقدم أو حتى تحقيق أبسط ما يرنوان إليه. لكن انفجارهما فى من؟

صمت، وكز على أسنانه؛ فتقلصت شفتاه وارتعشت ذقنه.. " أب لولدين وبنتين، ومدير فى مصلحة حكومية، وزوج لأم تمحو أمية الكبار لا يملك جنيهًا واحدًا يعطيه لها لتقضى مأموريتها!

ياه.....

لفحته نسمة هواء باردة فانتفض.. شق صدر الوسعاية، وانحرف عند السويقة، على ضريح سيدى نصر ركن جسده الثقيل.. ثمة نور خافت يتسلل من خصاص النافذة، ويرسم على الأرض مربعات ومثلثات متداخلة..

كان لا يزال فى وقفته المحنية وما يشبه الارتجاجة تتتابع فيه.

لا عاصم منهم غيرى

- ١ -

سعل سعلتين متتاليتين.. أحس أن قلبه ينخلع من جوفه.. ثبته بيده، أدهشه تلك القدرة العجيبة على تجمع الماء فى عينيه؛ فغامت الرؤية.

موجة من السعال أكبر وأقوى من سابقتها أغرقته.. كانت حشرجاته متقطعة وعالية.. جرى للحمام.. أمسكت برأسه فى هلع، وضمته إلى صدرها، لم تفلح الليونة والدفء فى احتوائه.. قالت: «مالك»؟

كان السعال سريعًا ومتلاحقًا، وتفتفات «مفيش» لا تكاد تبين.

ـ «رأسك سخنة».

كانت تنتفض، وكأن ما يخرج منه الآن انطلق منها..

ـ «قلت لك بلاش ألمسك».

ـ «يا راجل بردانة».

ـ «انتى واخدة الدور».

ـ «أنا عطياك ضهرى».

تعرف ما يجول فى رأسه. ضمته بقوة، أحس بنبض قلبها يربت عليه.

قال بادعاء: «لا علاقة لك بما أنا فيه».

ـ ٢ ـ

تحلق حوله الأهل والأصدقاء.. ناوشوه.. كان كطفل وضعه فى غربال يهزهزونه تيمنًا بوجوده.. لا حول له ولا قوة.

قال واحد: «حرارة وبرودة أطراف ضربة شمس».

قال ثان: «الاستسلام لهذا الفيروس مصيبة.. لا بد من المقاومة».

قال ثالث: «حين هاجمنى وضعت نفسى غصبًا عنها تحت دش بارد».

رد آخر: «طبُّ هذه الأيام لا يشفى».

تختلط الأصوات فى أذنيه، كل شىء ينحدر بسرعة.. كان يود أن يعلق:

«البلد مملوءة بالفيروسات والأطباء فرحون.. رزق ونازل.. هل يمنعونه؟».

اجتاحته رعشة فشهق لها، وكست عينيه الحمرة..

انتفضت زوجته: «قم للدكتور».

الزمن ماء.. فاضت قنواتى.. تكومت على نفسى أجعل منها سدًا، أشار أبى لمريديه، ولم أكن رأيتهم من قبل ولا أعرف أحدًا منهم: «طببوه».

آلاف الأيدى هدهدتنى.. كنت مستكينًا ووادعًا.. تقدم كبيرهم نحوى.. لف رأسى بمنديل وزر.. الصرخة فى الحلق ناشفة، والريق مر، حرك العصابة جهة اليمين وزر؛ ثم جهة اليسار وزر؛ ثم الأمام والخلف وزر، وهمس فى أذنى بكلمات؛ ثم مسح عليها وشدها.. «طق»..

ابتسم الجميع، والأذن الأخرى كذلك، وكانت «طق» قوية ثم مال على جبهتى.. عضنى.. طفحت صرختى، وتجلت لى الشمس وهى تسحب حضورها المستحم فى مائى، رويدًا، رويدًا..

كان الظلام مخيمًا، والماء البارد فوق الجبين ينشف بسرعة.. والرعدة فى الجسد لا تقاوم، وكأنما اقتسمت الحرارة والبرودة مسامه.

ـ «قم للدكتور».

- ٣ -

أدهشها استسلامه بهذه السرعة؛ فلم تتعود منذ زواجها منه إراحتها بهذه السهولة، كانا من الاختلاف عبر اثنتى عشرة سنة على وجه الاحتمال، أنجبا فيها أربعة.. ولدين وبنتين.. بدت لها اللحظة كأنها تعرفه الآن، كأنها أخيرًا رأت شاطئ هذا البحر.. هل كان عليه أن يمرض لتستعيده؟

رمقته بغبطة، وأمسكت بذراعه جيدًا.. كما لو كان هو.. هذا فارسها الذى حلمت به.. الوجه بالتأكيد: بسطته.. هدوءه.. ارتكانه عليها..

تستطيع الآن أن تقول لكل من يقابلها هذا هو.. خصامه وتغيره.. صراخه وبخله.. تكشيرته وقسوة هذره..

اعتياد.. خنق عيش لا أكثر..

هذا هو..

كان يقاوم ارتجافة هزته.. كتمت صرختها، ومدت يدها بعفوية إلى رأسه: «الحرارة فى ارتفاع.. تعدت الأربعين.. لا بل تزيد».

برودة «شباط» غير كافية رغم زمهريرها.. كان الشارع خاليًا تمامًا.. كأن «مجول» نائمة.. المسافة من الدار حتى عيادة الدكتور ليست كبيرة، ومع ذلك مشتها معه كسفرة طويلة.. أحست بتنهيدته المخنوقة..

«مالك؟»

لم تقصدها بذاتها.. أردفت: «يا ليتنى، أنا بدالك»

حدقت فى السماء.. فضاء لا نهائى مخنوق.. امتدت يداك لتفك زر جلبابك.. لم تقدر.. عادت عيناك جمرتين.. انكمشت..

حومت الخفافيش باتجاهك:

أطنان الديناميت تتساقط فوق رأسك.. تتصاعد ألسنة النيران..

أنت المطارد.. لا عاصم منهم غيرك.. «يا الله»..

هم يشيرون تجاهك..

«دكتور» مجول على مر السنين واحد.. يتغير.. يتبدل.. لكنه يظل واحدًا، مفردًا..

هل يفلح فى تنزيل حرارتك؟

ومن ينزل حرارة مجول؟

هل يمكنه إعادتك إلى سابق عهدك؟

لم يعد هناك أمل فى أن تجد «مجول» وناسها.. ضربوك على أم رأسك

من عشرة قرون وهم يضربونك..

من عشرة قرون وأنت تعانى إرتفاع الحرارة وارتفاع البرودة، وبينهما توزعت، وتبعثرت، ولم تتعلم شيئًا واحدًا.. ولم تسأل يومًا:

ما الذى يريدونه؟

كأن شيئًا لم يحدث.. ولا غرابة على الإطلاق.. تعلمت الإذعان، وتعلم ناس مجول التواكل والامتهان.. والخفافيش حولكم من كل اتجاه.

«لا مفر».

كانت تحيطه بذراعها.. وبين الحين والحين تنثر عيناها شباكها لتحميه؛ وهى تردد: يا ليتنى أنا بدالك. هى النار لى وحدى.. لك الحياة.. أنا المطارد..

لا عاصم منهم غيرى...

ـ «فداك حياتى»

ضمته بقوة.. كانا كجسد واحد، خرجت الكلمات من عينيها:

ـ «كلانا مرهون بصاحبه».

غضبة «سومة»

كتمت «سومة» عطسة مفاجئة، انفلتت مزقًا متناثرة من طاقتى أنفها؛ فحمدت الله.. تمطت عيناها المخضلتان بدمعات حارقة، سرعان ما ضيقتهما.. ثم فتحتهما على آخرهما، ولسعة برودة ندية تضرب الوجه، وتحت الأذنين، وتسلل من فتحة الصدر إلى البدن الحى؛ فتفزع دفئه واستكانته.

ابتسمت «بشرى» بعد كحة قصيرة وتفلت:

ـ صباحنا لبن..

همست «سومة» لنفسها:

ـ خير إن شاء الله..

وتقدمت تشق غلالة الزقاق الضبابية..

ما إن عبرتا باحة الجامع الكبير حتى اندفع كلب «دياب» السائب فى إثرهما بنباحه المتواصل.. تمتمت «بشرى» وهى تشد جلباب أختها الغائم

ـ على مهلك..

ـ تأخرنا..

قالتها «سومة» وشوحت بيدها، بعد ما مالت فى وجه الكلب؛ فتراجع مشددًا نباحه.

كانت السماء ساعتها تسحب أسمالها الداكنة رويدًا، رويدًا، والأختان تخبان باتجاه المدينة.

«إسو» محطة فى طرف المدينة، على الطريق السريع قبل أن تخرج منها، ربما استغرقت وقتًا عند اجتيازها إذا كنت راكبًا إلى طنطا، وحتمًا ستسمع أذناك نداءات الباعة فتنظر: لا ترى عيناك غير درب ضيق مزدحم بالرؤوس والأجساد وضجة لا تهدأ..

وقد تضغط على فتحتى أنفك، لا إراديًا، دون أن تشعر حين تخترقك روائح عطنة مندفعة من كومة قاذورات بجوار «مصفى البلدية» على ناصية الشارع، عندها ستدقق النظر، وتحاول أن تنفذ بنظراتك داخل حلقة من الزحام الشديد، بينهما البائعات الأخريات يهششن الذبابات، وينادين على الغاديات والرائحات، ويتظرفن أمام صنف الرجال...

ـ هل رفعت نظراتك؟

ـ مؤكد لا..

فالوجه المدور كرغيف بلدى، والشعر الملفوف على الإيشارب الكحلى كشال، والجسم المدكوك المخروط كشجرة توت ينطبعون

على الفور فى مخيلتك، وقد تسمع قبل أن تمضى اسم «سومة».. «هاتى يا سومة» .. «خذى يا سومة» .. «يالله يا سومة» .. وقعدة «سومة» خلف طستها لا تخطئها عين مهما انشغلت كل ثلاثاء وكل جمعة.

ساعتها تعرف أنك فى السوق.

شمس النهار تتسلل من حين لآخر، وتفرد شالها المنور على المكان، تحط عصافير كثيرة من أعشاشها على أسلاك الكهرباء والتليفون ونتوءات الجدران.. على مقربة من «المصفى»، المكان القديم، فرشت «سومة» طستها، وأفرغت فيه، من جوال حملته مع أختها، أرزا.. وسمت باسم الفتاح، الرزاق، الكريم.

تلصصت عيون البائعات، مصمصت «فوقية» القريبة منها، شفتيها ومطتهما لليمين وللشمال، ونادت فى عبها:

- هِل يا «شبل» وتعال..

حلقة الزحام تحكم قبضتها على «سومة»، وصخب كثير تتقاذفه الأيدى والألسنة فى بحرها، غير أن عينيها - من وقت لآخر - ترقبان الباب الموصد خلفها، على مبعدة، وتبلع ريقها الخشن.. هل مرت دقائق أم ساعات.. أم صر الباب لتوه وهبط من شقوقه «شبل»؟!..

لا هو طويل ولا هو عريض ولا شارب له مفتول تقف عليه البوم والغربان.. كان ناشف العود، ذا لحية، يرتدى بنطلونًا من الجينز

وقميصًا واسعًا مقلمًا بخطوط عريضة، وحول وسطه حزام تتدلى من حوافه سلاسل فضية تصنع أنصاف دوائر.

ـ كم يساوى هذا فى سوق الرجال؟!

لم تكن العيون ـ لمجرد الخوف ـ تستطيع احتمال التغاضى.. فها هو «شبل» يطوح بالأجولة فى عرض الطريق؛ ثم الطسوت؛ ثم ها هو يجأر: يا الله يا بنت «شيلى».

وقدمه لا تكف عن الرفس فى كل اتجاه.

تدحرجت نسوة، وتفتفت شفاة، وركض باعة، واختلط الصراخ مع الجلبة فى كتلة هائلة من الفوضى، ورجل يقول فى غضبة مكتومة بعد أن طق «شبل» رأسه فى رأس زوجته:

ـ ماله ومالنا؟!

مضغت «فوقية» ألمها، وهمست فى عب زوجها:

ـ ألمنا أقل من غيرنا.. بص..

وربتت على ظهره.

حطت كل العيون على الأنثى الضعيفة، الغارقة فى دمها من غضبة المفترى، كانت ممددة على الأرض، والدم السائل من جانب الفم على الرقبة يحفر مجراه، عشرات الأنفس تنظر ولا ترى.. اجترأت «بشرى» وتقدمت إلى أختها وجعرت بلهفة:

ـ آه يا غالية..

أطبق أخو شبل على فمها أسكتها، وقال راجيًا:

ـ لا تصرخى يا بنت الناس، أخى عنيد، والبنية الروح فيها،

ردت فوقية دون وعى منها:

ـ حرام.. يا ناس حرام.

قالت بائعة الردة والسرس:

ـ ذنبنا فى رقبتكم

عض زوج فوقية على نواجذه:

ـ لو أنك فى بلدى لدستك بنعلى،.....

رمى بصره على الأرض السوداء، الكالحة، التى تهين الضعيف.. لمت «سومة»، نفسها وجاهدت لتطرد الخيالات السوداء، وفتحت عينيها المغمضتين.. هالها أن رأت الذعر فى كل الوجوه.. كومت حزنها، واستندت عليه لتقوم، صدرها طالع نازل، ورعشة فى الجسد لا تقاوم.. لم تقدر.. تشنجت أختها وعيناها على الأرز المبذور فى حضن التراب، والأقدام، وكل حبة بينها وبين أختها مشوار: بخاطرك.. كفاك بكاء..

وعيون الأختين سماء تمطر فى ليل شتاء

قالت «سومة» لنفسها:

ـ الدم دمى، ويعلم الله كم أعانى ليجرى فى عروق الأيتام أولادى..

وقالت «سومة» لأختها: تشتكيه لمن؟

هو والحكومة سواء.. الحكومة تأخذ الموازين والأرز باسم القانون.. وشبل كلب هائج ـ لا يوقفه غير القوى ـ يبذر الأرز على طول الذراع باسمه لا باسم القانون.

(وآه يا قلبى من الهوان....)

صرخت «سومة» فى جمهرة المحيطين:

ـ انخرستم ساعة الجد والحز.. والآن تلومونى على السكوت.. ماذا تفعل حرمة بين الوحوش؟

وقالت والصوت واهن، محشرج، مخنوق:

ـ إذا اشتكيته من يضمن لى منكم أكل الأولاد؟!

الوقت غابة و«سومة» بمفردها محمومة، عاجزة عن فعل شىء..

تصارع الوساوس، وكلام التطييب، والدمع ـ فى المآقى ـ تحجر..

حجر يسقط تلو حجر، على الأرض التى تئن من ظلم الناس للناس، وخداع الغلابة للغلابة أمثالهم.. كانت لا تزال فى جلستها، بين الحين والحين تقبض التراب «المدسوس بالأرز» فى قبضتها، وتقربه من وجهها؛ ثم تفرد يدها المرتعشة.. يتساقط، يهوى على فخذيها حبات نار، وعيناها تبرقان للباب المفتوح خلفها بل أمامها..

كومت حزنها واستندت عليه، صدرها طالع نازل، ورعشة فى الجسد لا تقاوم..

قامت بخطى وئيدة، سارت.. شبل على كرسى أمام دكانه، يضع ساقًا فوق أخرى..

اقتربت منه، ليس ثمة ما يخجل يحدث.. الاصفرار وجه آخر للسماء، فى لمحة وببطء شديد متوجس: استماتت على ما بين فخذيه.

هل رأى الناس «شبل» بعدها؟

هل سمعت الحكومة عن غضبة «سومة»؟

ربما.. وربما لا.. غير أن المؤكد فى اليوم التالى أحرق دكان شبل والمنازل المجاورة، وتوقف الطريق السريع.. وأحرق القطار القادم من سكة طنطا.. وقيل إنه السادس من أبريل.

شتاءات

فى الشتاء قابلتها، كنت أعرف عنها القليل، وكانت تعرف عنى اسمى وشكلى. دعتنى لزيارة أقاربى.. فى البدء ترددت، وأمام إلحاحها تلعثمت، وحين كشفت دموعها عن وجهها، قلت: أحاول.

بينى وبين نفسى عرضت الأمر، وبقليل من الحنية المتأصلة فى القلب من جد الأجداد وافقت:

ـ زيارة الأقارب صدقة.

فى السماء النجوم تبزغ على استحياء. فى المساء كنت أخطو أولى زياراتى، والعقل منى يرفع ويحط تاريخًا طويلاً، لا أعرف عنه شيئًا؛ لكنه ملتصق بى، كجلدى على لحمى: اتفضل.

كنت فى ذاكرتى ابن أبى المقطوع من شجرة، رغم الأقارب، الذى تزوج بالقطع أمى، بعد معاناة حب، خدمات ومصالح بالنهار، وحارس ليلى لا تغفل له عين، ولا ينام على ثلاث بنات، كانت أمى أكبرهن وأحلاهن:

ـ أهلاً وسهلاً

طلبت أمى من أبى موافقة أهلى، قال: تركت الجمل بما حمل.

قالت: والبنات؟!

رد: أنا أبوهم وأنت أمهم.

قالت ، وقد أسبلت رمشيها: والدار؟!

مد كفيه واحتضن كفيها: الدار دارك، وقوتى رأس مالك.

تنهدت، ابتسمت قريبتى ونبتت على شفتيها وردة، أثمرت فى بطنى الخاوية ثمار السبانخ والكرنب وعناقيد البيض. قلت فى نفسى، وأنا أعرف نفسى:

ـ ما أجمل أن يكون لك أقارب!

فى الشتاء كنت أعرف عنها الكثير، وكانت تعرف عنى ما شجعها:

حكت لى عن زوجها الذى راح فى بلاد الناس البعيدة، بعد أن باع مصاغها والقراريط التى ورثها، ورهن عمرها للذى يتاجر، ولم يعد.. ونزع قلبها.

ثم حكت لى عن أمه، التى حاولت قدر جهدها أن تحل محله؛ فتقوس ظهرها، وطمست عيناها؛ فهجعت هامدة فى انتظار الذى لا يجىء.. وبكت..

قدمت لها منديلاً أبيض معطرًا، واستمعت: حكت لى عن أمها، التى هى ابنة عم والدى، ومن باب القرابة تصير عمتى، وكيف

تركتها مع أخواتها لزوجة الأب التى لا ترحم ولا تهادن؟! والأب الذى صار يرضيها بأى شىء وكل شىء.. وبكت..

قدمت لها يدى المرتعشة وقبضت على يدها.. واستمعت:

حكت لى عن ابنها، الذى راح يوجهه للبلد الذى فيه زوجها ـ الذى هو أبوه ـ ونهنهت: من يقتل من؟!

لصقت قلبى بقلبها وانقبضت.. ناولتنى كوب الشاى وعيناها نهران يغيض ماؤهما.

انكمشت.. اهتزت وارتعشت، وأكدت لى أنها لم تنم فى الليالى الفائتة، ولم يهدأ لها بال.. وأعقبت بأن الغمز واللمز ومضغ الأحلام لا دخل لهم فى التأكيد..

كانت حرارتى قد ارتفعت، وفاضى نهراها وانسابا، وهى تلمح لى أنها تثق بقريبها، المتمثل فى شخصى، قلت لها:

ـ إننى أختلف كثيرًا عنى أبى.

دست فى فمى لقمة غموسها: ابن الوز عوام.. نمت.

فى الشتاء شعرت بالبرد والجوع ناوشنى، قلمى ناوشنى قلقى.. أسندت رأسى على أوراق خاصة جدًا، أكتبها لنفسى على شكل قصة حدثت لصديق، غاظه أن بنت الجيران الزرقاء يطاردها كل من هب ودب، ولا تسأل عنه هو القريب..

بعد مشاورات ومعارك وسفلات، حنت له..

بعد يوم: تكررت لقاءاتهما فى الأزقة والحوارى وعرض الطريق..

بعد أسبوع: كتب كتابه عليها.

بعد شهر:

ـ تركت له صبيانًا وبنات لا يعرف بالتحديد أيهم يكون من صلبه..

بعد العام: ألبت عليه الأنطاع والسفلة والمأجورين..

فى العام التالى: كانت تحمل نعشه وتصرخ بعلو صوتها: يا بعلى..

التفاصيل تخنقنى..

وبين ضلوعى تتأجج خيبتى..

ارتشفت كأسًا من تاريخى المجهول قدمها لى صديق قديم لأبى، وبات من المؤكد لى أن أحل أنا محل شهر زاد قريبتى، ولا تقوم هى مكانى.

تعلقت، كما يتعلق كل مشغوف بأبى .. وقد ظننت أننى لم أقربها، وكانت قد أصبحت زوجتى، علها تنسى الذى راح والذى لم يعد.. وكلاهما يربطنى بهما حبل خفى عقدته فى سرتها وطرفه حول رقبتى.

فى الشتاء قال لى الطبيب: تجلد، الدنيا اتغيرت، لا الزوجة لك، ولا الابن منك، ولا الجيران حولك.

اتكأت على حزنى واعتدلت.. تطلعت حولى.. الناس هى هى، فقط قصرت قاماتهم كثيرًا، والسماء هى هى، فقط ارتفعت حرارة الأرض كثيرًا.

قلت وأنا أبلع ريقى بصعوبة: ربما.. ربما.

مشاوير الأسياد

احتقنت السماء بقطعان الجمال.. غامت نوافير الأرض وتلونت.. تجمدت العصافير على الأفرع العرايا.. ارتعشت.. هجم فرس الليل على فرس النهار فتعاقبت الأيام.

راح شهر وجاء شهر ثان، والأقدام المعروقة الوارمة لا تمل، اللف والدوران فى البحث عن الولد والبنت.. كيف رحلا..؟!

الله وحده يعلم.. لكن آلاف الألسنة تبارت، وكشفت عن أسنانها الصدئة، وخمنت وأجمعت على أنهما ولا بد اتفقا على ساعة معلومة فى اليوم المعلوم:

معقول؟!

البنت الطيبة ذات الخمسة عشر ربيعًا، التى لم تعرف قدماها أكثر من عتبة الدار والقنطرة التى يبيعون عندها كل شىء ويشترون، ولا تبعد سوى أمتار!

معقول؟!

الولد الربعة، المبتسم دومًا، المختشى من العين باستمرار، حين تشوفه يتفتق ذهنه، ويتمسكن لحد ما يتمكن من البنت، ويضحك عليها، وعلى كل الذقون!

قالت الجدة المحنية القاعدة على جوال فى الركن:

ـ شوفوا المندل.

انتفضت أم البنت وكأنها حطت يدها على الولد، وزعقت:

ـ بنتى

ازدرد الأب جرحه، وهو ينظر إلىّ، قلت وقد فهمت مقصده: يدى على يدك.

أنا صاحب اللحية وحامل كتاب الله وافقت وقلت فى سرى:

ـ الكريم لا يضام.

احتضننى الشيخ الأعرج، وحط على جبينى قبلة خفيفة مكملاً حديثًا ما كان قد بدأه.

ـ طول عمرى أقول فيه الخير.. أنا الذى ربيته.

وربت بيده على كتفى: أهلاً وسهلاً.

من يرانى، وقتها، لا يصدق أننى أنا: احمر وجهى وارتفعت حرارتى، وانسلت برودة، لا أدرى كيف؟ ولسعت جلد رأسى..

كان الحوار لا يزال ممتدًا ما بين الترحيب وآيات العرفان إلى أن تشابكت شجرتا العائلتين فى جذع واحد؛ فارتكن عليها الأب وقال:

ـ الناس للناس.. والأقربون أولى بالمعروف.

ثم حدجنى بنظرة متعبة، وكأنما يرمى الذنب كله علينا.. وأكمل:

ـ الأولاد هربوا.

مستفسرًا قال الشيخ:

ـ اللهم اجعله خيرًا.. واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم.

بهم وانكسار شديدين قال الأب:

ـ بنتك «سكر»

وعاود النظر إلىّ

ـ أغواها إبراهيم

ـ إبراهيم خطيبها!

مدهوشًا قال الشيخ؛ فلم يرد الرجل، وبعد تمتمات واستغفارات مجروحة مد يده، وتناول كتابًا ضخمًا مصفر الأوراق، وأومأ لى أن أبتعد قليلاً وأنا أتلو فى سرى سورة يس، ولم أدهش لحلول الرجل الأب مكانى.

إبريق فخار سواده غطيس، حنة أسوانى، حلفا بر، زجاجة ماء ورد، قمع سكر.

وذكر إوز لونه فى لون السماء فى عز الظهر، وإيشارب لبنى وآخر أصفر أفضل الألوان عندها.

وضعنا كل الأشياء التى بأيدينا عند دخولنا الحجرة وعددناها أكثر من مرة قبل أن يدخل علينا الشيخ الأعرج بوجهه المغضن حاد القسمات، صرخ فينا:

ـ ناقص الأتر.

زامت أم البنت، وقلبت الجدة المحنية شفتها، وأخرجت من عبها قطعة قماش فى حجم كفى اليدين.

قلنا:

ـ الدكة مقطوعة.

لامنا بلطف لا يخلو من اعتزاز بعمله: إذا كنتم تفهمون هكذا فى ما يطلبه الأسياد.

ما الذى دفعكم إلىّ؟

حاولنا التملص والاعتذار، قلنا: منك نطلب العون.

فى جلسته اعتدل، ونادى للرجل والد البنت ليجلس إلى يمينه، وعلى الأم التى اختلطت دموعها بعرقها؛ فأثارت فتحتى أنفها على الدوام، لتجلس على يساره، ورمانى بنظرة، ضاقت فيها عيناه، وارتفع حاجباه.. قلت:

ـ لا تقلق يا شيخنا.

هز رأسه نافيًا.. توجهت إلى أعينهم.. انتفضت واقفًا والغيظ يأكل منى. قال:

ـ أنت ابنى.. والأسياد لا تخشى اللحى، لولا عيناك اللتان ـ صمت لحظة ـ تنفذان من الجدار.. فى البيت.

قال الأب: كلام الشيخ مضبوط.

قلت: يا خال (كنت أناديه يا خال تأدبًا ولصلة قرابة من بعيد بأمى).

رد الخال: الأسياد لا تكذب.

قلت: ظل إبراهيم معكم خمس سنوات خطيبًا لبنتكم.

هل رأيتم منه مكروهًا؟

قالت الأم: كثيرًا ما تركناهما وحدهما.. وبكت.

بلعت ألمى وشكوكى وقمت:

هل أصدق خالى وأهل بيته الذين أصبحوا منها وأصبحنا منهم أم أصدق أبى وأمى وإخوتى الذين يؤكدون أن البنت طالعة لأمها، التى تزوجت خالى غصبًا عن أهله وأهلها..؟!

فى «سنباط» قالوا لنا عندنا فاطمتان، الكبرى والصغرى، أيهما تريدان؟

قلنا على الفور: الاثنتين.. نريد الاثنتين.

بعد صعود وهبوط لالتواءات ومفازات، وحارات وأزقة، دلفنا إلى عطفة.. تركنا عندها الصغير وقال: هذه الكبرى.

الباب عتيق عليه نقوش، وبعض آيات تآكلت حروفها وكف من النحاس أزْرَقَّ لونه، قابض على جمرة على شكل كرة فى حجم حبة عنب بناتى.

الممر طويل، مظلم، كسرداب فى نهايته حجرة ليس بها شباك، إنما كورة صغيرة قريبة من السقف، ينفذ منها الضوء على استحياء، ويتكسر على الجدران. كل الموجودين نساء، همست لخالى..

تمتم فى سره: بركاتك يا حاجة فاطمة.

لمت الحاجة رجلها اليسرى وفردتها، حكت ظهرها فى الجدار خلفها، وأحكمت قبضتها على شعر البنت النائمة فى حجرها، كطفلة، وحانت منها التفاتة وضعت فيها حنكة الشعر المبيض، وتغضنات جلد غير مشدود، وسعلت؛ ثم ضربت باليد الأخرى ضربات متتالية على الجسد الممدود؛ ثم قلبتها على وشها وظهرها كسمكة فى فرن.

الضربات عيدان حطب محمرة جاهزة للشواء.. والنسوة عيون مبحلقة على شفا حفرة تومض بالتوق للارتواء.. غُصّتُ فى نفسى، ومسكتنى رعشة ورغبة عنيفة للخلاص؛ فتململت، قلت لخالى: هيا.

انتبهت الحاجة، كما لو لم تكن رأتنا، بخبث:

ـ هنا للنسوان يا أولاد.

مط خالى جسده كدودة وسحب إليها:

ـ فى عرضك دلينا.

ضمت شفتيها، وبلعت ريقها، وكورت قولها ورمته.

ـ بنتك هريت.

غام وجهه وتغضن، وبرقت عيناه:

ـ مدد يا رئيسة الديوان.

قالت الحاجة: بلهجة واثقة، بعدما أشارت إلىّ: شجرة نبق كنت، جف أوراقها وسقطت؛ فتعرت الفروع: خير يا حاجة!

- قريبك؟

- أخوه.

ثمة شىء يشك الجسد ويتمدد فى خلاياه، وبت عاجزًا عن إيقاف الرعشة التى انتابتنى، وخفت أن أطرد.. قلت برجاء فى آن:

ـ نعم الهارب أخى، التى معه ـ يا رئيسة ـ بنت خالى.

بنظرة رمتنى العجوز؛ فبانت سنتها الذهبية..

ومدت يدها.. أخرجت بسرعة ورقة حمراء وقلت: طمنى خالى.

خلف كومة من السحب الداكنة توارت الشمس.. رفت طيور السماء بأجنحتها، واستدارت على عقبيها، دون أن يمس تشكيلها أى اهتزازة.. كان السرب على شكل هلب غير معقوف الذيل..

أسقطت اللحظة فى الحلق المر، التفاصيل ملمومة فى قاع العقل: كل النساء اللاتى رأينهن عند الحاجة اشتركن فى طلب واحد، ليس له ثان وإن تعددت أشكاله:

ـ طلبت البنت النائمة فى الحجر بعد الضربات على الصدر والظهر والأرداف حجابًا؛ فلم يعد زوجها كما كان فى الأيام الأولى.

ـ قالت الشمطاء للعجوز: أريده يغلى ويفور ولا يهدأ له بال، يتقلب على الأشواك ويشرب المر، بعد عشر سنين لاف على غيرها.

ـ بنت المدارس لم تتحرج من نومتها فى الحجر، وهمست:

مكتوب لى عمل لا يصبر معى سوى أيام بعدها لا أراه.

ضربت الكف، وخفت أن يسقط منى الرأس؛ فأقعيت على عتبة الجامع..

والخجل يأكل منى ـ أنا صاحب اللحية ـ لا ناقة لى ولا جمل فيما حصل..

أخى يهرب وبنت خالى تهرب، وأنا وخالى على من لا يساوى ندور.. أرى فى عينيه الاتهام فأبلعه، ويرى فى عينى الشفقة؛ فتتكسر على جفنيه الدموع..

أقول: يا خال.. والقلب منى وآه مخنوق.. (هل أبونا آدم عف؟ وهل أمنا حواء من الذنب بريئة؟.. حينما طردا من الجنة؟)

الهم جمل يبرك على القلب؛ فينوخ الجسد.. فتحت عيناى بابى مجراهما.. أهمس!

ـ لم نقصر فى شىء.

عينا خالى عنزتان حمراوان، لا تكفان عن المأمأة.. وأنا ـ جرو ـ مطيع ولدتنى أمى بين قطيع الله.

أتبعه أينما مضى .. فردت الحاجة فدان برسيم أخضر أمام العنزتين ـ ومن عجب ـ أتت بفتافيت خبز مقدد، وبسمة كبيرة بعرض البحر.. قالت: كله بأمر الله.. وابتسمت.. ومدت حبل كلامها ولفته حول عنق خالى:

ـ الأولاد بخير.

ودقت مسمارًا فى الأرض وربطتنى:

لم يخرجا من البلد.

قالت:

محطة.. ومدرسة.. ومستشفى.. وأسفلت، وغرزت عينيها فى عينى خالى.. وتمسكنت:

ـ زمن غير الزمن.. الدنيا تغيرت.

ومالت ناحيتى، وغمزت ـ كانت مليحة وسمينة، والذهب فى الذراعين لحد الكوع، والشال الأبيض على الرأس انزاح للوراء؛ فبان الشعر ناعمًا، فاحمًا، كغمامة:

ـ لو تحلق ذقنك ترضى عنك الأسياد.

كنست أمى أضرحة الأولياء: سيدى حسب الله، وسيدى فايد، والأربعين، وابن عفان فجر ليلة جمعة، ونثرت أتربتها فى بيتنا:

المندرة والقاعة والزريبة، ولم تنس وسط الدار.. «والكرسى» وطلعة السلم وقدام الفرن.. بعدما نذرت لهم الشموع والحبوب والمناديل الحرير المعطرة.

ما قالته الفاطمتان أمر.

قال خالى: هل تأتين معى؟

قلت: لم يعد الأمر بيدى.

فى المنصورة نزلنا.. خلفنا: النيل على شاطئيه تتلألأ الأنوار، وتتماوج فى مائه قوارب العشاق. أمامنا: مبنى المحافظة، وشارع البحر، وجنود تروح وتجىء كغربان.

اقتربنا من أحدهم وسألناه: شارع الثورة؟

رد بامتعاض: أنتما فيه.

كل عمارات الشارع دخلناها.. نقص على البواب حكايتنا.. تثخن فى الجروح، ويستغفر الله من الزمن الحرام وأولاد الحرام.

ـ لا شىء.

أخيرًا قال لنا: (أفندى) ابن حلال؛ هنا بيت يسكنه النازحون من بعيد، وأشار إلى مبنى قديم على مبعده..

قال خالى: الدنيا بخير.

قلت: بخير.

فى الطريق نفسه مشينا.. كل واحد منا يحمل العالم على كاهله.. مخاوف تنازعنى، ماذا يحدث لو انطبقت السماء على الأرض؟ كل ما فى الأمر ستهلك أمة وتقوم أمة مكانها.. وأنا.. واحد من ملايين.

ألهث قليلاً وحلقى يجف.. لا أدرى فيما يفكر الآن؟

باستغراب ينظر إلىّ.. أضطرب وأعتذر له.. توقفنا قدام

المبنى.. المدخل عتيق تفوح منه رائحة ودرج ينوء تحت الأقدام.. صعدنا مقلين.. استقبلتنا امرأة لها وجه الفاطمتين كأنما انتظرتنا.. بشوشة.. مرحبة..

يا ألف أهلاً وألف مرحبًا...

ثم أضفت موجهة دفتها صوب خالى.

طلبك موجود.

مدد يا رفاعى.. يا رئيسة الديوان نظرة..

قالها واقفًا،.. كان يمسح دمعتين انحدرتا على الخد الناشف، وينظر إلىَّ فى صمت، لم يعد الأمر بيدى.. سأتبعك أينما نذهب.. عند باب جانبى أوقفتنى بذراعيها.

باسمة

هنا له.

ترددت.. قالت بمهارة امرأة أخرى، ويدها على ذقنى.

الستار موجود.

كنت جالسًا القرفصاء.. أخفى وجهى بين ركبتى.. وخالى يلطم خديه كالنساء حين شخط فيه الشرطى توقفا.. بطاقتك.

كان يرتعش ويداه تفتشان عن المحفظة فى جيبى الصدار.

وأنت.

رائحة كريهة تدخل أنفى وتتربع.. لا أقدر على التحمل.. دفعة واحدة تبصق أمعائى.. يسندنى.. كان يؤلمنى قليلاً.. أتماسك يقول الشرطى بقرف: امسحوها.

كل ما تعلمته ينزلق ويسقط تحت قدمى ويدى؛ فأدوسه. منحنى الظهر.. تتمرغ عيناى فى بلاط القسم.

أنتما محظوظان.. لولا العين الساهرة ما عفونا عنكما يا صاحب اللحية.

كنت أدرك أنه لا يمكن العثور عليهما.. ربما رحلا إلى العراق أو إلى الكويت.

فوق حجر فى حصن الشاطئ استكنت.. أرمى الوجه

بالماء.. فى الماء وجه.. وغيوم.. ونجوم ترنج.. وخالى يربت على كفى: حقك عنى.

كانت النجوم تغطس وتقب وتتماوج، والغيوم تفرش العيون؛ فلا تقدر على الرؤية.

رغبة

بدا لى الأمر رغبة حقيقية تمامًا؛ بل أكيدة، كيف لم أفعلها من قبل؟

خلعت ملابسى كاملة.. ركبتنى رعشة لذيذة.. انتفضت كأنما فتح كيانى نوافذه على آخره؛ فدوّم الهواء وأزّ، ونبتت فى شراييني أزهار ووردت؛ فضحكت ورميت نفسى على السرير.

فى مواجهة السرير التسريحة بزجاجها المغبش ونمنماتها الصغيرة، المتداخلة، التى تشكل فرعًا صغيرًا لشجرة توت.. نهضت.

تأملت الذى أمامى.. سقطت يداى ـ لا إراديًا ـ على سوأتى.. تغير لونه.. رماديًا كان.. ضاقت عيناى قليلاً.. عريضة جبهته.. شعرات بيض متناثرة كيفما اتفق.. الشعر قصير مما أضفى اتساعًا على محيط الرأس.

ضممت شفتى ومددتهما فارتفعت مع الحركة، أرنبة أنفى.

ـ هل التقينا؟

لم يجب، ولم أرغب فى سماع رده.

ـ ماذا يفيد إن تعرفت عليه أو تعرف علىّ؟

أدرت رأسى للخلف.. زوجتى تقول:

«أنت غير الناس كلها.. أنت فى طرف والناس فى طرف».

أمى ترمى نظرتها بعيدًا؛ فتطولنى لسعتها، لكنها لم تتكلم، أفرغت أختى ـ التى تكبرنى بثلاثة أعوام، وسافر زوجها ولم يعد ـ صوتها فوق رأسى بازدراء: «صنف الرجال واحد».

أولادى الأربعة فى صلف يشكلون فى اقترابهم منى زهرة صبار، حادة، وقاتمة.. فتحت عينىَّ على آخرهما: الأفق غائم ودوامات الهواء ناعمة ورطبة..

كنت كمن علقوه من عرقوبه فى ميدان عام.. أتأرجح عاريًا ويداى متدليتان، لا حول لهما ولا قوة.

للحظة أجفلت.. كنت لا أزال على السرير.. فنهضت.

خطر لى فجأة «معنى أن تكون حرًا» فهويت..

هويت.

روحان

(١)

شبه

قال له ابنه الصغير، الصغير:

«أنا أشبهك» .. والرجال واحد.. لماذا لا تبتسم؟

وحين فتح فمه تدلت سلسلة من علامات الاستفهام، وتبعثرت تحت قدميه.. بان وجهه العريض متغضنًا، وحوى طرقًا كثيرة ملتوية، لا يدرى أيهما يسلك، وأيهما تؤدى إلى عينيه الغائصتين؟ وكأنما أحكمتا بتلال لا سبيل للفكاك منهم.. غير أن مجرى الرؤية شق لنفسه بينهم مخرجًا.. كانت ساعتها واقفة بين عينيه، تقبله، وتخلع قلبها وتفرشه تحت قدميه، وتستعطفه أن يدوس.

(٢)

لمياء

حينما ألقوها إلىّ، تقافز الذى فى جنبى، ولبستنى رعشة..

قالوا: سميها.

لم أتمالك.. نز جسدى كله أشعة خضراء، لا أدرى من أين انبثقت؟

قربت وجهى منها.. لفوا عيونهم حولى.. تماسكت..

كانت عيناها زمردتين صغيرتين، ووجهها الحليب فى حجم قبضة اليد، لؤلؤة ..

لم تكن تبكى، ولا تبتسم..

غير أنى رأيت النوارس تحط على صفحة ثغرها الذى بالكاد يبين.

قلت: هى لى.

انتبهوا إلىّ ..

قلت: لام وياء.

برهومة

شد الكوب من يدها وتشبث به.. ترددتْ قليلاً ثم تركته له.. أمال رأسه نحوى. رمته بنظرة ساخطة، وعضت أسنانها.. قبلتُه من جبينه، وابتسمتُ، ورفعتُ الكوب إلى فمه..

قالت بغيظ: هذا ما تريده.

من قلبى ضحكتُ، وتطلعتُ إليها: نز يا عسل.

لوت بوزها وهى تتفرس فينا.. قلت بغضبة مفتعلة: هيا.. كلينا.

غامت وزامت.. أخفيت ضحكى فى صدرى، ورفعته لأعلى: تفتح الورد فى خديه، تلقفته ورفعته: حطت عصافير الجنة على جناحيه، جذبته من يدى، وأنزلته على الأرض: كانت عيناها قطتين نمرتين، أمسكت عن الكلام: أعطتنى ظهرها وبرطمت، تعلق وردى بى: «أبعد عن الشر وغنى له»

قلت مرارًا لنفسى: عقل نسوان.

ورفعته لأعلى، ودفنت غضبى فى صدره.. صهللته تجتاح كيانى وتدفعنى للمزيد..

«لماذا نضن على أنفسنا بلحظات سعادة ؟»

كانت كلما رأتنى عابسًا تغيم عيناها، ويطل منهما قلق، متحفز طاغ.

وتمتد يداها احتمالاً للضغط على يدى، وتلثمها وتمسح بظهرها وجنتيها، وما تحت أذنيها وهى تتساءل: «ما بك .. ؟»

وقبل أن أجيب تسترسل فى تخمين ما عكر صفوى، وحين يغلب حمارها، أخاف عليها، وأجلو بعضًا من عبسى، وأضحك، غصبًا عنى، وأقول: لا شىء.

تعرف أنى أتحامل على نفسى، وتمد يديها وتحضننى .. أهتز لدفئها؛ فيما يشبه الومض، وأقبلها..

خدش وجهى بأظافره.. توقفت لاهثًا.. وقلت: «تعبت يا برهومة»

تابعنى برهة، بعينين لؤلؤتين صغيرتين براقتين، واندفع إلىّ..

بانت غمازتاه كما لو كانتا عينى أمه..

ـ قبلتهما.

وجه

أى الشبيهين تكون؟!

الرأس كبيرة.. فى مقدمتها بعض الشعيرات التفّت وتكوّمت على نفسها؛ فكوّنت فيما يشبه الكوشة لتحيلك إلى كثافة ما..

قد كان من زمن...

العينان غائرتان كأنهما لؤلؤتان فى بحر، ترى بريقهما كلما صفى الماء حولهما..

الفم رغم ذمته ينبئك عن اتساعه..

عظام الوجه فى جملتها بارزة حتى إن الوجنتين لا تخطئهما عين.. وثمة ابتسامة فى شحوبها الممضى تكاد تبين..

ترفع يدك، غصبا عنك، تتحسس ملامحك:

هذان حاجبان كثيفان، تنهر حلاقك إذا ما أراد تسويتهما أو إزالة ما بينهما من عبسة.

وهذا أنف مفلطح كست لحومه على رقائقه؛ فبان كما لو كان كتلة شحمية صبت هكذا بلا اتفاق..

وهذه ذقنك مسحوبة بعض الشيء؛ فتضفى انبعاجًا ما فى محيط الاستدارة..

ثمة جمال لا يلحظه سواك..

تغمض عينيك: بياض مشوب بوقار على جانبى الرأس

والأذنان كبيرتان، كبيرتان.. وتهدل ما فى جلد الرقبة أشبه بكرمشة..

ثمة فرق.. تباين ما.. لا بد أن يكون..

تلحظه وتراه، ويراه كل من يكون فى موقعك..

فى العين حسن رغم صغرهما وضيقهما حتى بالكاد تعجب..

كيف يتساوى الجمال والحسن فى الضيق والاتساع؟

ضع الصورتين جانبك..

هذا ورد سافر ونساك..

وهذه بسمة بالكاد تذكرك فى بيتها..

ولمياء وإبراهيم مشغولان عنك بشبابهما..

كيف ترى نفسك الآن؟

ما أنت إلا نقطة آخر السطر تكاد تتلاشى..

فلا جمال كنت ولا جمال الآن.

عطش

كانت لا تزال واقفة فى البلكونة، تفرد بدنها للشمس، وتنفض عنه غبار ليل.. شقراء، شهباء ـ لست أدرى ـ كفرس تتمطى فى براح..

تواريت خلف عامود الخرسانة وأمعنت:

ترتدى بنطالاً من القماش لبيجامة قديمة، مزق حجرها من خلف؛ فبانت عجيزتها مكتنزة بلا ترهل، كأنما تحررت من ضيق البنطال.

حين مالت ببدنها على سور البلكونة، انشد قميصها لأعلى، أشعة الشمس الساقطة عليها شكلت حزامًا من اللحم البض أعلى البنطال..

لفحتها سخونة.. اعتدلت ومرت بأصابعها فوق الحزام، وعلى قميصها المفتوح عند الصدر، نهر من عسل مصفى.. ابتسمت، سحبت نفسًا عميقًا كالسابح فى بحر.. خرجت «الله» منى بلا وعى..

ارتعشت وأغمضت عينى:

قالت: لا تعرفنى؟!

قالت: أنا بنت المدينة.

قالت : تزوجت مرتين والأخيرة عندكم لبراح الغيطان، سرب من البلابل يمرح فى الفضاء.

قالت : لست غريبة عنكم.. وأنتم تبدون غرباء على أنفسكم!

انكمشت ومادت بى الأرض.

قالت: .....

كنت لا أزال سابحًا فى بحرها .. أشتم يودها، وأحس برذاذ مائها عالقًا على جسدى، والقليل القليل الذى انساب إلى حلقى ليس مالحًا ولا حارقًا إنما منعش وفوار.

كان صوتى هامسًا وضعيفًا لحد الوهن.

قلت: أنت؟!

كانت ابتسامتها عريضة ـ عرض البحر ـ وصافية كمائه، وهالات الطيف المشعة تتلألأ حولها..

لم أدر ما بى وما قلت، وكيف هكذا وجدتنى ـ أنا وهى ـ وجهًا لوجه..؟! وهى تقول: تعال.

انتبهت..

التلصص على الجيران من شيم الحمقى

نزلت مسرعًا الدرج.

وبدنها ـ الفرس ـ الفوار يشدنى.

رجفة

- ١ -

توجه ـ عم كمال ـ تجاه الصوت.. كانا يقفان بزيهما المدنى خمن أنهما ـ ولا شك ـ من قوات الأمن، كانت نظراتهما مستريبة.. تفحصاه من فوق ومن تحت.. نظرا لبعضهما.. قال ـ عم كمال ـ بامتعاض: نعم.

جذبه أحدهما بغيظ: «وحياة أمك»؟!

ضغط «عم كمال» نفسه، فى حركة غريزية للدفاع؛ فلم يبد على وجهه أى تأثير غير الصمت.

- ٢ -

انتبه «عم كمال» حين التفت حوله... كان وحده فى الشارع ... ارتشق الصوت فى أذنه:

ـ «خد ياله»..

شعر برجفة، ولم يبال... كان الصوت آمرًا ووقحًا.. توجه «عم كمال» مطيعًا تجاه الصوت، كانا يقفان بزيهما المتشابه، بنطال أزرق

وقميص لبنى، وعلى جانبى كل منهما طبنجته فى جرابها.. قال فى نفسه: ضابطًا أمن.

كانت نظراتهما مستريبة.. التفا حواليه.. نظرا لبعضهما.. قال ـ عم كمال ـ نعم.. ضغط ـ عم كمال ـ نفسه فى حركة غريزية للدفاع؛ فلم يبد على وجهه أى تأثر.. هاجمه الآخر بركلة مغتاظًا: «ساكت ليه»؟

- ٣ -

كان «عم كمال» ـ يسير وحده فى الشارع ذات صباح: مشغول البال، يهبط قلبه ويصعد سلالم ضيقة، ومتهدمة تحت وطأة الكيس ـ كما يسميه أو «الجوال» كما يطلق عليه البعض ـ الذى يحمله على كتفه... ترى من منهم سيقابله؟... ومن سيعطيه؟... ومن منهم سيتهرب منه هذه المرة أو يخافه أولاده؟

حين ارتشفت فى أذنه «خد ياله» عبرت جسده قشعريرة، باغتته، امتعضت منها أمعاؤه.. وجد نفسه أمامهما، منصاعًا، لما بدر من وقاحتهما، عندئذ تأكد ماهيتهما.. كانا ضابطى أمن.

بريبة تفحصاه، كمن يطرزان فراغهما.. نظرا لبعضهما، لم يكمل «عم كمال» ـ نعم.. أو أكملها بتهتهة.. جذبه أحدهما بغيظ «وحياة أمك»؟ فى حركة غريزية للدفاع ضغط «عم كمال» نفسه، وجاهد ليقول: «يا بنى

دأنا زى..»

أجهضت القدم الممدودة فى البطن، ركلة، الجملة فلم تتم، وخرجت «أبوك» واهية متقطعة فى وهن رغمًا عنه، ولم يتكلم.. كانا يقفان والغيظ عيون أربعة تطق شررًا.

- ٤ -

أمام كائنين غريبين وجد «عم كمال» نفسه.. استدعته الحاجة «خد يا له» الوقحة.. كانا يحدقان فيه بريبة أول الأمر.. ثم دفعهما الملل إلى تزجية فراغهما بلعبة... تحولت إلى ما يشبه الحلقة.. مدا أظافرهما الفظيعة وخمشا الجسد العجوز؛ فنفذت لأحشائه:

إيه فى الكيس؟!

- إرهابى ياله؟!

- منشورات؟!

- تتردد على الصحفيين ؟!

بعض المارة دفعهم الفضول، لرؤية المنظر عن بعد.

«عم كمال» يزحف على يديه وركبتيه يلملم أشلاءه التى انبقرت من الكيس: جرائد قديمة، جرائد جديدة، أوراق محبرة، مجلات، كتب، وبعض لقيمات مقددة، وحبة طماطم مضغوطة الجانب وإفادات لأدباء)... حين رصها - كما تعود - بعناية داخل كيسه أو جواله عندئذ تأوه مذعورًا.

- ٥ -

كان يرتدى الجاكت رمادى اللون، على رأسه الطاقية الغامقة متآكلة الحواف فى السابعة والستين.. أعرف أنكم تعرفونه.. من المؤكد قابلتموه، نعم تعرفونه.

الرجل الطيب يحمل كيسه على كتفه بكل حرص وعناية، ويحل ضيفكم قبل أن تصحوا من نومكم أو فى محل عملكم يهديكم من طيبات ما يحمل دون مقابل... فيدهشكم ... ما الذى الآن يحدث له ويرجفه؛ وهو يسرد لى كيف وقف الوحشان على رأسه ومد أحدهما قدمه الفظيعة وبقر أحشاءه؟

- ٦ -

«خد ياله»...

لم يكن هناك سوى «عم كمال» يحث خطا منهوكة، تحت أشعة الشمس على كورنيش النيل.. وأرتال من المخلوقات ـ متفاوتة الحجم ـ تتدحرج خلف بعضها أو فى اتجاهات متعاكسة.. بلا يقين.. كان يعرف أنه وحده ـ من قليل ـ الذين يحملون الأحلام، والرؤوس الفارغة كثيرة، وأى حلم لو صغر ـ حتمًا ـ يثقل الرأس الداخل فيها، ويؤلب عليها الأنطاع والسفلة ومأجورى التفاهات.. فقط أفرغ رأسك من حشوها... ثم اضحك بملء شدقيك أو ارقص كما يحلو لك... أو اخلع ملابسك ـ كما ولدتك أمك ـ ساعتها لن يلومك أحد... أو يقترب منك أحد... أو ينادى عليك.. «خد ياله»

وكان لا بد من هول الفجأة أن يسكت.

وكان لا بد أن ينهره أحد الضابطين، ويغتاظ الآخر ويركله.

وكان لا بد أن ينام «عم كمال» ليلته، عرض فى التخشيبة.

بطريقة ما كان لا بد أن تحدث هذه الأشياء...

لماذا إذن أرتجف، ويسقط قلبى تحت قدمى، وأتذكر أبى الذى مات قبل أن يسرد لى؟

ويجرى أخى ـ الصغير ـ فى عينى بضحكته التى غابت معه

«ابعد عنهم على قد ما تقدر»

وتقول أمى: «الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح»، وأنا الآن:.

أرتجف..

أرتجف..

أرتجف..

غير مستريح..

مدارات

ركز الاثنان.. وضع يديه على رأسيهما فى تكأة خفيفة.. تعلقت الأنفاس بوقع الأقدام:

ـ «واحد.. اثنين.. ثلاثة».

بدأ الاتجاه إلى اليمين فى حركة سريعة.. عاد بظهره إلى الشمال فى السرعة نفسها هرولت الأقدام يمنة ويسرة.. زادت التفاتته حدة فى الاتجاهين.. مضت دقيقة، دقيقتان دونما تدخل.. ناوره صاحب الجهة اليسرى فى تحفز:

ـ «عليك أن تعود هناك.. لا تقطع اللقمة»

فرقع المنديل المجدول فى الهواء.. رفع أحد النائمين رأسه:

«الضرب على الوجه ممنوع»

اصطف على الجانبين؛ كسياج ناس كثيرة.. بانت الوسعاية، كمستطيل، محصورة بين ضلعين طويلين وآخرين قصيرين.. علت قهقهات الحاضرين حين مرقت قطة فى إثرها كلب.. سرعان

ما عادت دوامة الحركة إلى ما كانت عليه.. تحفز ودفاع من الحامى، وكر وفر من المناورين.. تذمر النائمان من طول الانتباه.. هب أحدهم مطيحًا بيديه صوب الخصوم:

ـ «عليكم ـ ولا بد ـ بالهجوم».

حين التفت إلى زميله وجد وجهه يلمع تحت حبات عرقه.. كان على وشك أن يقول له: «حل محلى»؛ لكنه شعر أن الأمر جد خطير، وأن زميله يحاول على قدر ما يقدر حمايته، كما أنه ـ قبل وبعد ـ لا يرى فى نفسه الإجادة كما لم يتعودها.. نزل كما كان.. حاول بلع دبيب الأقدام المهرولة..

همس لزميله تحت:

ـ «قم أنت».

ـ « لا ».

ـ «متى يمكنه، إذن، الإمساك بأحدهم».

ـ «لا أدرى».

دوت ضربتان متتاليتان فوق الظهرين المشدودين.. انكمش الجسدان المتلاصقان فى انتظار ضربات أخرى..

أغرقت موجات الضحك كل الواقفين.. تباينت تحليلاتهم واستنتاجاتهم.. عبر صاحب الجهة اليمنى إلى زميله فى الجهة الأخرى..

ـ فز فجأة صائحًا:

ـ «جاءت الضربة على أذنى».

ـ «عليك أن تخفيها».

ـ «عليك أنت أن تكون مكانى».

لم يحسبها قبلاً، أو حسبها ولم يجرؤ على تصديقها.. كان قوله مفاجأة له ولزميله وللواقفين..

كان قصيرًا، وممتلئًا، وثقيلاً؛ لكنه فعلها الآن، وفى موقف يحسد عليه.. استدار لثلاثتهم.. اخترقت موانع جلده نسمات أبريل الرطبة، أخذ نفسًا عميقًا.. خطفت عيناه أطولهم ذا الجلباب المخطط، المعقود على وسطه، والشعر المرسل.. كان الضوء نافذًا وقويًا والظلال على الأرض تتقاطع؛ فترسم فى حركتها لوحة تجريدية بالغة العمق.. تأرجح فى الاتجاهين.. ثقلت حركته، عمدًا، فى الجهة الأخرى كان يعلم أنهم فى أعقابه.. حين سمع أول ضربة ترك لساقيه العنان خلف الأطوال، الذى بوغت بسرعته؛ فانكفأ على الأرض.. انقض عليه، مسعورًا، كأن بينهما ثأرًا

ألجمت الدهشة كل الواقفين، فيما كان فريق الأطوال يهم بالنزول.

دوامات العودة

تلوت أمعائى وانقبضت.. حاولت قدر الإمكان التشبث.. زادت التقلصات حدة.. لم تفلح أسنانى المضغوطة على بعضها فى التخفيف.

ـ لا بد من عمل شىء.

قررت أن أحسم الأمر.

***

أسطح الدور فى قريتنا لدرجة ما متجاورة واطئة.. بعض العمارات ترتفع، نشازًا، عالية؛ لكنها لا تقطع الصلة التى ألفناها ودرجنا عليها تمامًا، كدارنا ذات الطوابق الثلاثة.. قلت لأمى يومًا، محتجًا:

ـ النوم فى العراء.أفضل من صعود درجات السلم وهبوطها.

قالت فى أسى:

ـ هكذا الدنيا، الانتماء لدار، أيًا كانت، احتماء بأهلها، لو أن أمى معى الآن، ربما كنت أعفيت نفسى من مسئوليات كثيرة، جسام، أولها البحث عن الطعام، وآخرها خوض المجهول مما لا بد منه.

عندما فردت نفسى وعيناى مغلقتان نبهتنى خشخشة أعواد القش إلى مكانى. كانت الشمس من حين لآخر ترسل أشعتها على استحياء، والسماء تتلون صفحتها، كيفما اتفق، بضبابية خفيفة وغامقة.. قلت فى نفسى:

ـ ماذا لو أمضغ قشًا؟

ربما تعوق حركة السهام المرشوقة فى بطنى فتقف.

***

ثمة محاولة كان لا بد من تجربتها؛ لكن هذا لا يمنع من محاولة أخرى.. مللت البحث فى الحجرات الخالية والمضغ فى كل ما يجوز، ولا يجوز، التحامه.. نزلت وصعدت مرات.. توقفت طويلاً، أمام الأبواب المغلقة والنوافذ المحكمة:

ـ لماذا يغلقون دائمًا الأبواب؟

انتهى بى المطاف مرة أخرى إلى السطح.. حاولت أن أصرخ.. غرقت مأمأتى فى آتون الألم الزاحف فى أوصالى.. لم أحتمل.. رفرفت كديك ذبحوه لتوه.. يمنة ويسرة تقلبت..

ثم دفست يدىّ وقدمىّ فى بطنى وضغطت.

لا يعقل أن يكون هذا ألم جوع، أو البحث، أو النوم تحت سماء فبراير المتقلبة.. حطت على القرب منى حمامتان ثم طارتا.. جرت أمام عينى بطة، بكينى، بيضاء؛ ثم نقرت مداعبة رقبتى.. خطر لى خاطر كبحته لحظتها بلا تردد.

ـ لست من الفصيلة ذاتها.

* * *

بات فى حكم المؤكد أن نهايتى وشيكة الوقوع.. نظرت إلى المارين فى الشارع مودعًا.. قفزة واحدة وأكون بينهم جثة لا حراك فيها.

ـ ما قيمة أن تعيش فى الدنيا محرومًا.

أغمضت عينى.. دارت رأسى.. لا .. لا .. تقول أمى:

قيمة الحياة فى العطاء وليس الأخذ.

ما زال بإمكانى التحمل لحظات.. نظرة أخيرة على ما حولى.. حسرت مدد الشوف فى دائرتى.. التمعت فى عينى الخضرة على مقربة منى.. قفزت، قفزة فأخرى، وأخرى على السطح المجاور، وصلت.. مضغت.. لا.. لا.. كنت أبلعه بلا مضغ.. أتيت فى غمضة عليه كله، وعلى قشور الأرز المبسوسة فى القصعة للدجاج والبط.. لم أحفل بوقع الأقدام المهرولة نحوى.. كل همى أن آكل، وما دون ذلك هباء.

* * *

حينما رفعنى الرجل لأعلى ضاغطًا بيديه القويتين صدرى ومؤخرة بطنى، أفزعنى ما خرج، غصبًا، عنى.. بدا لى فى قسوته كغيره من بنى جنسه حين يركلوننا دونما سبب أو يقذفوننا بما يلبسون فى أقدامهم.. مأمأت كثيرًا علّ فى صياحى ما يثنيه عن وحشيته..

- جريرتى أنى أحب الحياة.

لا فائدة.. لمع قرص الشمس فجأة؛ ثم توارى مثلما ظهر.. غامت كل الأشياء فى عينى.. أحدثت وقعتى دويًا.. التف حولى أناس كثيرون تصادف مرورهم..

بعضهم حوقلوا..

وآخرون فى دوامة الدهشة مبحلقين..

وقليل منهم طالبوا بالسكين..

سرت فى جسدى، من حلاوة الروح قشعريرة، عندما انساب الدم خيطًا متصلاً غامقًا من فمى.. قال صوت عابر توقف برهة:

- يا ناس حرام.. انهضوه.. راح على الأرض.

كانت أطرافى المسحوقة تتمدد فى صلابة..

وثمة راحة تتفشى فى مسامى..

بينما العيون المبحلقة مكتفية بالفرجة.

بنت الكذاب

تقاطع الخطوط عفوًا فى لوحة الزمن ترسم بشكل أو بآخر تفاصيل قدرية عجيبة يمكن مجازًا تحملها، تمامًا كمنحنيات أزقة مجول، التى شهدت نحو أكثر من قرن على حالتها تلك، ولم يكن مقعدنا العلوى الذى يضم ـ بقدرة قادر ـ كل ما لنا فى هذه الدنيا.. أبى .. أمى .. أنا .. وبعض الاحتياجات الضرورية ـ وغير الضرورية ـ معنا .. حتى الخلية الأرنبية التى كثيرًا ما شاطرتنا قوتنا ونومتنا.. لم يكن بالوسيع .. فهو لا يتعدى الثلاثة أمتار طولاً والاثنين عرضًا.. ولا أذكر فيما كانت أوليات أيامى.. صرخات أمى المستمرة فى وجه أبى وتقززها، واستكانته واستيائه أشبه بزيجة «أراجوز» عم خميس الذى يمر بقريتنا كل شهر.. بعض الليالى التعيسة التى قضيناها بدون عشاء، ولعنات أبى المستمرة على وجهى النحس تزيد من ضربات قلبى حتى ليخيل إلىّ أنه فجأة سيقف.. لا أقارب .. خالتى الوحيدة بعد موت زوجها انشغلت عنا.. أعمامى وعماتى لا يذكرون على وجه التحديد أبى.. والمدرسة حلم تبخر مع دموع أمى التى على ما أرى، تتحمل العبء الأكبر.

التقزز من النفس مرارة لا تحتمل.. كثيرًا ما يتندرون بغرائب كنت أنا بطلها.. يقولون فى مولد البدوى سرقت «شخشيخة» من بائع رصيف.. ضبطنى.. لولا تدخل أولاد الحلال لدخلت القسم، انتهت بتوبيخه ساخنة مرة أضحكتنا بعدها ساعات.. أمى تنهرنى، والدموع امتزجت بالبسمات «مثل أبيك».. خالتى فى اشمئزاز إلى أبى:

«خصلتكم زفت وقطران»

وهو على ما يبدو لا مظلوم ولا جانٍ.. فأحيانًا أراه يدارى عن أمى ويكذب .. ما أقسى الكذب!

خليط أنا من الاثنين أكذب كثيرًا.. أتصنع البراءة أكثر.. وإن كنت فى قرارة نفسى أود أن أتشبه بأمى (المكافحة الصبورة فى عملها لا فى تسلط لسانها).. سخط الزملاء اتهمونى مرة بالسرقة فى الفصل، ولم أفعل .. هزءًا ظننت فى نفسى.

السابعة من عمرى كما كتب فى شهادة مدرستى.. من يرانى يجزم أنى تخطيت العشرين.. ابن خالتى خطيبى أحبه فى الصغر.. تعاهدت أمى وخالتى.. فرحة أعض أطراف أصابعى.. قسمات وجهى تضىء لمقدمه.. يبتسم.. لا ينظر فى عينى.. «غباء».

الحلم فى العين سعادة لا توصف.. عاهدت نفسى ألا أكذب.. أبتسم .. أقضم شفتى السفلى.. صورته لا تفارق مخيلتى.. أطياف كثيرة ـ متعددة ـ من وجوه الرجال تعبر سمائى.. أولاها أبى وآخرها ابن خالتى.. أراه آخر غير كل الوجوه.. لو يأتى الآن.. أضمه.. أقبله.. فى كل ما تقع عليه شفتاى.. لو يناغشنى:

ـ «أحبك».

ـ «بل أنا التى أعبدك».

لو يوم يقولها لى وأرد عليه.. أغمض عينى وأفتحهما.. ما أسهل أن تتبخر الأحلام!

أبى يقسم.. أمى تبكى.. تلطم.. أنفاسى زادت وانقبضت هول.. كل ما فى جوفى طل فى حلقى.. تنقض.. تهزه .. تلطمه بيدها .. فى عينيه انكسار وذل.. على شفتى الجافة تتشقق الكلمات..

قالت: «طلعهم .. هات يا ابن ..»

يتردد.. لو لم يفعل.. شخط ونطر.. أحاول أن أتكلم.. أقترب.. أمى تدفعنى.. تطرحنى.. أقع.. عيناه فى عينى تستنجدان بى..

ـ «طلعهم ليكون اليوم آخر عمرك»

بعض الناس تسمعنا.. تتفرج

ـ «كفاية .. كفاية .. ما فى يوم من غير قتال»

تخرج الكلمات مندفعة متقطعة كبقايا بركان متفجر من فمى

«طلعهم يا حرامى»

الدموع ساخنة أكثر من أمى وملتهبة

«شقاى ومستقبل بنتى»

لا أفهم من كل ما يقال غير أن أبى حرامى.. أعماقى تصرخ..

مغص فى بطنى.. دوار فى رأسى.. أهدئ أمى.. أترجى أبى... يمد يده ـ ينظر إلىّ ـ داخل صدريته.. يخرج مبلغًا.. تتلهف أمى «تحويشة العمر» لماذا أبى؟

أبى الزوج الثانى ـ المتواكل ـ مثلما سمعت فى حياة أمى

الأول قطف خمس سنوات من عمرها.. وأنا قطفت البقية.. تقرأ أمى الفاتحة على روح أبى.. الدموع تنهمر من عينيها، وتهطل من عينى.. بعد أن مضى خطيبى ـ ابن خالتى ـ لقننى درسًا.. لماذا أكذب ؟!

لا تزال تقرأ الفاتحة.. وعيناى تلتقطان بسرعة أشياء لا يمكن أن أصدقها.. وقد كذبت..

كذبت.

ثمرتان

تفاحة..

يعودان معًا، جنبًا إلى جنب، غائصين فى مقعد الأتوبيس..

تدعى أنها المرة الأولى التى تشعر بانقباض بعد أن خطف البحر زوجها.

وتقول: إن ابنيها يعوضان شيئًا ما غيابه..

يعرف أنها تكذب، ويعرف أيضًا كيف يدخل لها مباشرة؟

يقول: سأريك ما يسيل لعابك.

تتورد وجنتاها، ويصبغ الاحمرار أذنيها، تغرز فى عينيه بسمة.. يدرك أن الخطوة الثانية بدأت.. ثمة ضحكات آتية من الخلف.. يتعلل بسقوط منديله على الأرض، ويختلس النظر، وحين يعتدل، يقرصها من فخذها بلطف، ويقول: ماذا قلت؟

تزغده فى جنبه بكوعها؛ وهى ترمى ببصرها للفضاء المتراجع فى سرعة للوراء.. وماذا تقول لزوجتك؟!

لم يفاجئه السؤال.. راق له أن يخون، ولو لمرة، لأنه ـ كما يعتقد ويحلو له دائمًا أن يقول: «العالم من حولك يغوص لركبتيه فى وحل خلفته مؤخراتهم، وأنت لم تزل كصباحهم اللبن، كما أنت»

هزته برجلها اليمنى: صدقت!

يرمقها بدهشة: ألم نتفق؟!

تدوس على قدمه اليسرى: كم اتفقنا من قبل؟!

أناناس..

جذبته من يده وسارت، مذهولاً يتبعها، عند دباسة الكرتون.. وقفت أمام صاحبتها، العينان زمردتان تشعان البنفسج نحوه.. لا يفهم..

قالت: مصرى!

ردت عليها ودهشتها مصبوغة ببسمة: صعيدى.

مشت يدها على شعره الخشن، وقرصت خده.. فاض حياؤه على وجهه حمرة، قال لتوه: شو؟!

وتراجع.. عيناه تنتقلان بينهما بذكورة.. ليستا على جمال واحد..

الأولى: تغمض عينيك عليها ولا تطلقهما.

الأخرى: تخشى أن تبرحها؛ فيهرب منك الباقى من عمرك.

فى نفس واحد قالتا: خائف؟!

تجرع خوفه.. اقترب .. أسند ظهره على الصناديق الكرتون المصفوفة فوق بعضها، المملوءة بعلب الأناناس.

قالت الأولى: أول مرة تزور لبنان؟

ببراءة لا تخلو من خبث أجاب: أول مرة أترك زوجتى.

قالت الأخرى ذات العينين الزمردتين:

ـ لو ترقص معنا الآن لذهب عنك ما يكدرك.

مثل فأر حاصرته قطتان.. قال: لو أنى رأيتكما قبل زواجى لتعطرت بإحداكما وتمددت على الأخرى، وغفوت؛ ثم فى البحر الكبير أغسل نعاسى، وأتوضأ، وأصلى ركعتين.

ترجرجت ضحكاتهن فى المكان، وتبادلتا النظرات، وغمزت إحداهما للأخرى: ماذا لو طلقت زوجتك الآن؟

تصفر ابتسامته، يفكر لحظة، تناوشه عينا زوجته النيليتين وشعرها النخيل.. يمسح لسانه فى حلقه، ويتركه يهجع فى حفرة ـ فى فكه السفلى ـ فى الجانب الأيسر. يستمرئ اللعبة. يهرش رأسه الخشن.. يلتفت خلفه.. تنبجس علب الأناناس الملونة من الماكينة الغول..

يتذكر لحظة، ساعة أن قال أبوه: زوجك، أرضك، عرضك، دمك. تسيل على خده دمعة: «العين بصيرة، واليد قصيرة، والمكتوب..»

يدوى انفجار..

عيناه لا تريان سوى الغبار..

مذعورة الأقدام فى كل اتجاه.. يركض يمينًا، يجرى يسارًا.. يتعثر.. يقع على مقربة منه يسمع تحادثًا يأتيه خافتًا:

«ها الأيام السودة تعود»

«علقت ثانى ..»

علقت: بدأت مرة أخرى «لهجة لبنانية».

تحقق

تحاملت على رعشة دخلتنى، واستعنت بالله.. طفا وجهها الذى قبلنى بشحوبه وتجاعيده، وشدنى لحضنها؛ فسكنت جروحى عن النباح.

سبقتنى طيورى فى امتدادات البراح... رابعهم كنت... أطالع الصباح بتمتمات شرع فى تموجاتها، يرتطم جسدى ببخار ـ هو منى ـ أستطعم دفأه.. تلسعنى برودة الرذاذ.. أفيق، دون توقف، وأكمل السير وراءهم، الشوارع حادة وموغلة، عريضة وفارعة، تغالب وحشة صمت ما قبل الفجر وما بعده. النتوءات المصمتة تخطف عينى؛ فلا أرى لها أية نوافذ أو أبواب، كأنما الذين شيّدوها لم يخرجوا منها أو يدخلوها؛ فلا أدرى كيف استقامت، هكذا، عالية؟ ولماذا؟

آثرت الانطلاق.. لا.. كان جبرًا علىّ اللحاق بالثلاثة الباقين، المندفعين.. الشارع يسلمنا لشارع وشارع يقذفنا فى طريق هجعت على جوانبه سيارات مختلفة الأشكال والأحجام والألوان.

قلت ـ بعدما كلت قدماى ـ للذى يحاذينى:

هل حقًا سنعمل؟

حين نعرف مكانهم.

وهل يحدث؟

أسقط فى جبه ريقًا؛ فبانت دوامات على صفحة وجهه، قال بحنق:

نحاول.

كان الرحيل كما تواعدنا بعد صلاة الفجر، الذى حرصنا عليه استزادة ـ الذى أعرف الآن أنه على الأقل الزاد الوحيد ـ علت همهمات، أظهرت سخطها، شجبها فتداخلت وتعقدت، ولم نفصح عن معنى..

كانت طيورى لا تزال فى امتدادات البراح... حطت على طيف يتدحرج.. مغل نقطة... أشرت للصحاب... على مدد الشوف، عيونهم شعت ضوءًا أسود وأحكمت سياجها حول الطيف...

.. «المرام هو» .. قال الأول:

« لن نفقده» .... قال الثانى: «علينا به»..... قال الثالث: تثاقل لسانى، لا أعرف هل للفجر كل هذه المرارة ؟ وسكت. كنا نشد الخطى خلفه.. حين رآنا، فى تلفته فهم، وتابع سيره المتدحرج.

الطريق يمتد، والسماء تبدل جلبابًا بجلباب، والمسافة بيننا وبينه لم تتغير، هى هى، كأنما قيست تمامًا. قلت: لنجر.

عند انحناءة شارع عبرناه، حاذر فى التلفت... هى رغبته الآن، أن يجرى.. فى انحناءة أخرى؛ كأن ما يدفعه هو تعقبنا، كان يجهد فى أن يفلت، وكنا نعرف أنه لقمتنا.. شهر مضى على نزولى عندهم.. فى الحجرة الرطبة التى لا يملك أحدنا فيها غير مكان جسده ليلاً، والتزاحم نهارًا.. نقف بالطابور على دورة المياه وحوض غسيل الوجه.. نخطف من بعضنا على مضض، لقيمات مقددة، ونجرع فى أسى سوء الحال وقلة العمل.. ونقتات فتات العودة.. كل فى ما جمعه.. نز قلبى جروحه، وكأنما قلت:

ـ الطعين أنا.

كان تحركنا فى صورة عشوائية.

ونثوم.. نحتك.. تلهث أنفاسنا، نظراتنا لها هدف واحد..

نقطة على البعد.. تتدحرج..

طينا بمراقبتها... قبل أن تتلاشى

أو تبحر.

أحكام العيال

ـ امسك أعصابك.. لا داع للتشدد.

تسمرت نظراته برهة.. انفتحت عيناه قليلاً.. استطالت القامة حتى بلغت السقف.. طأطأ رأسه

ـ «بكرة يا ناكر خيرى تشوف زمانى من زمن غيرى».

صدق حدسك.. اتسعت الهوة بينه وبينى.. تغير طعمه.. لا أدرى أينا تبدل..؟ رغم تلميحاته التى تتهمنى أؤكد أنى منها براء.

ـ هذا لا بد منه.

أعلم ذلك.. أبصم بالعشرة.. أن معاشرة الكبار أفضل ألف مرة من معاشرة الصغار.. لم يكن كذلك.

فى لحظة انتظاره التى لم تطل انشغل بتسلق الجدران، وفيما هو مقدم عليه.. ماذا يقول..؟

وكيف يبدأ.. ؟ تسرب إلى مسامعه وقع الخطو القادم.. ما أثقل الهواء.. تمالك.. انتشل نفسه مما فيه.. غير أن اصفرارًا علا

قامته واقتعد شفتيه.. بدا السلام فاترًا؛ كأنما وقع عفوًا منهما.. علت رشفات الشاى الأنفاس المكبوتة غصبًا.. استجمع قواه.. لا بد من التحدث.. لكن فليحذر.

ـ لا أعرف كيف حدث هذا..؟! لكنه حدث.

ـ .....

ـ ثمة أشياء يجب أن أوضحها.. بلعت نرفزتى مداها ـ بعد هدهدتها ـ دلعها سد قنواتى؛ فانفجرت.

التفت إليه فى عصبية.. أغرقته نظراته الغاضبة. قال بحنق:

ـ مهما يكن يا أخى... لا يستدعى ذلك منك.

ـ هل يرضيك أن تخرج من بيتها هكذا.. أعود من سفرى فلا أجدها.

دفعة واحدة انفش فيه؛ كأنما يشفى غليله أو انهارت داخله سدود التعقل.

ـ أنسيت أنك طردتها قبل سفرك.. أهانت عليك سنوات أربع عشتها هنا..؟!

وخبط بكلتا يديه على التربيزة فى تشنج.. فتدفقت حممه فى عينيه.. ثم أشار بعصبيته المعهودة إلى البرواز المعلق فوق الجدار «ها هو ذا .. عليك أن توقن أنه حى» .. كانت يداه المرعوشتان أشبه بسكين حاد فى يد طفل.. والرجل الساكت مبهوت كأنما سقط عليه سهم الله أو صب عليه ـ فجأة ـ جردل ماء بارد.

ـ لن أنسى ما حييت.. أبدًا.. إنك ضربتها بعد عشرين يومًا من زواجكما وخمسة عشر من رحيله.. ماذا تظن نفسك أنت.. انقبضت فروة رأسه؛ فبانت كجلد قنفذ.. أليست بنت ناس..؟

الرغاوى البيضاء التى طفحت على حواف شفتيه زادت تفتفته بله وسحنته اصفرارًا.. فبدا كما لو كان كلبًا مسعورًا يطارده صائده.. فلم يشعر إلا وأمه وأخته تهرولان إليهما، ويبعدان يديه اللتين استماتيتا على الرقبة.. وأنين خافت محشور ينفلت من بين ثنايا الهلهلة الممددة من فرط الإعياء.

ـ أختـ .. ك .. طا .. لق .. بالـ .. تلا .. تة.

عندئذ.. فقط .. صرخت ـ المرأة الصغيرة ـ ملتاعة على زوجها، مرعوبة من أخيها.. أعقبتها أمها بالمثل؛ فتوالت ـ على الفور كعدوى ـ صرخات النسوة الواقفات على العتبات واللواتى من لحظة أرهفن السمع لما دار.

علامات

الورقة أمامه بيضاء، القلم فى يده يتأرجح، كائنات من الطيف تعدو، وكائنات على باب القلب تجثم، يدق القلم على الجبهة، دقات خفيفة متوالية سرعان ما تشتد؛ فيحس وخز الضربات بشغاف القلب، تتساقط نتف من حيث الدق:

الأب ممدد، كثيرون حوله، ينظر كأنما يبحث عنى، أدارى نفسى.

كيف أجرؤ على النظر إليه عند رحيله؟

ولا حول لى ولا قوة لأثنيه أو حتى أقدر أن أعيده.

تحضنه الأم.. تتساقط أعضائى.. تتبعثر فى الجهات..

من لى يعيدها.. ولا إيزيس لى تجمعنى؛ فأبعث من جديد؟!

ليل ونهار، وسماء مشرعة؛ كأنما هبطت منها «فاطمة» كملاك.

قرّبت وجهها منى بحنو صغير كحبة عنب طازجة ومغرية، وأنا جائع وأحب الحلو.. قالت: لمن تتركنى؟

كان صوتها هامسًا وضعيفًا.. مسكت يدها، ولثمتها، اجتاحتنى رعشة. ضممتها، لم تقاوم .. حمامتان صغيرتان حطتا على صدرى واستكانتا.. أغمضت عينى..

وفيما بين النوم والإفاقة، سمعت أصواتًا غريبة، وجلبة وصياحًا، وهم كثيرون.. ملامحهم غريبة، مشوهة أو ممسوخة، يرتدون قبعات وأحذية ثقيلة؛ كأنما ـ انشقت الأرض عنهم ـ مدفوعون لحصارى.. لا.. مجبولون لحتفى.

ها هم ينزعون قلبى.. بعد أن طرحونى صارخين بلكنتهم الغريبة: لم تعد لك.

كانت بينهم، تلوك فى فمها لبانة، تتثنى وتتقصع، وقد رفعت براقع الحياء من على وجهها، وكأنما لا تعرفنى.. أو أنا شىء، رغم كل ما فعلته معها أغيظها.. أو اشتروها بمغرياتهم المتعددة ، أو هكذا رأت فيهم أمانها..

ويا ربى.

استنفر قواى.. لا ملجأ ولا منجى.. لا دم فى عروقى..

أصفق عينى بسرعة. أقاوم ارتجافًا يقتلعنى:

لا يمكن أن أصدق أن «فاطمة» هكذا بسهولة تبيعنى؟!

.. من مكمنى العلوي (حيث اعتدت المكوث فى أثناء مخاصمتي لنفسى خلف شباكى المغلق) أطلت عصافير تلصصى فى حقل الحارة:

باب بقالة الأمانة موارب قليلاً (تسمح فتحته الضيقة بإظهار مقطع جانبى متكامل).. الحاج «تامر» يمد يده على بنكه، الخرساء الصغيرة تفزع فجأة.. ثم ترتد لوضعها السابق متكئة بمرفقيها.. (حركة الجذب والشد تنبآن عن محاولة صبيانية رخيصة)

على بعد أمتار.. : «صالحة» خلف فرشها فى السويقة (تقاطع الشوارع الأربعة فى حارتنا).

تنادى المارة: سعر هنا.. سعر هناك.

كأنما تتوقع صمتهم أو ردهم تقول: بضاعة السوق برانى،

وترمى بصرها أمامها.. على الشمال قليلاً، داخل صالة الألعاب (بلورة من الزجاج .. حوائطها.. مكاتبها.. أجهزتها الغريبة).. وتنادى: يا حسن، يا واد يا حسن.

وتتكسر نظرتها وتتدحرج تحت قدميها.. تهمس فى عبها:

النت، آه يا بنى، النت

تلسعنى حفنة هواء رطبة أو حارة، وينهق حمار فى زريبة مجاورة، وتنبعث موسيقى زاعقة.. تختلط الأشياء..

دوى كالانفجارات يتصاعد منى/ حولى/ فىّ..

أفقد الإحساس للحظة..

لماذا مات أبى؟ ولماذا راحت أمى بعده؟

لماذا تخنقنى «فاطمة» بعيالها الأربعة وتضع متطلباتهم فى عنقى؟

لماذا أصاب العمى والهزال «صالحة» (بعد أن ذهب ابنها الوحيد إلى بغداد ولم يعد) وتكومت على حصيرة من القش فى ركن السويقة ولا يلتفت إليها أحد؟

الغبشة تلف المكان.. والعينان تدوران فى فلك لا يمكن تحديده..

نتف ما تنفك.. كثيرة.. تتساقط.. سرعان ما تذوب أو تتدحرج على شكل كرات هلامية مدببة أو كلمات (قد أكون كاتبها) على سطح الورقة:

كل الوجوه منك.. تسقط منها ما تسقط.. ترتدى منها ما تحب..

هى وحدها ملامحك.. تشكل فيك الروح إلى حيث تبدأ..

لماذا إذن؟

كلما أخلو إلى نفسى وأبص داخلى..

أمد يدى.. أتحسس بعضى..

وأشم تذكارات جروحى..

كأننى أنت، وكأنك أنا.. كأننا معًا.. لا أرى سواى.

أغمض عينى.. وأزيح الورقة من أمامى.. وأندثر.

الطيبون

شكل رجل: تبحر من عينيه عصافير ملونة، وتحوم حول قلبى، وتحط، أمعن النظر: شريطا الحلفاء.

فوق عينيه يضيفان الطريق العريقنى الواصل لغابة رأيه.. محت جبهتى المنداة، أفزعتنى برودة ملمسها، قلت: أهلاً وأغلقت باب البلكونة؛ مؤكد هى البنت الصغيرة التى صعدت إلىّ، لا تزال واقفة، وزوجتى تسألها: من يا وردة؟

والسؤال الأول حين يندلق لا بد وأن تعقبه تساؤلات شتى: كالساعة وأحوال الطقس، وعدد أكواب الشاى والطعام، والليلة التى لا أول لها ولا آخر، شخطت فى البنت فأغلقت مرافئها، واستكانت لصق الجدار.. التفت إلى المرأة التى تلبس قميصها الكستنائى المخرم، المطرزة أطرافه بأهرام الدانتيلا.. وضعت يدها على ثغر منامتها الحرير؛ فتململت القطتان المتحفزتان من قيد الأسر، وخرج مواؤهما محشرجًا:

بيوت الناس لها حرمة... أفقت على صوت الباب الردود ـ بلعت ريقى. والريق إذا نشف مسامير ترتشق بجدار بلعومى. . ساعتها أدركت كيف تكون مزعجا ومنزعجًا فى آن، ولا تستطيع البوح.

قلت: تفضلوا

قال ولسانه يمخر عباب حلقه: لا أحد معى.. رسمت على وجهى بسمة، لم تدم لحظة، غصبًا عنى.. دخلت أمامه؛ فى مواجهة باب الشقة ترابيزة السفرة بزجاجها المكسور، وبعض كتب، وأوراق متناثرة، ومسدس صغير، وسيارة، وقطار مقلوبة عربته الأمامية، أعطيت لها ظهرى بسرعة وقلت: تفضل.. دخل.. انحنى. خلع حذاءه.. داس على طرف السجادة. وقبل أن يرمى جسده النحيل المتهالك، قال: أرجو المعذرة، فتحت شيش البلكونة.. أزحت على الجانبين غيارات الصغير المنشورة على الحبلين .. فى الداخل اندفع هواء بارد له رائحة. تململت : تاكل.. وابتسمت...

رد: فول...

قلت: لا ملوخية.. وضحكنا...

لاحظت أن الغسيل الجاف، مكوم على كرسى فى الركن، تحت لوحة كبيرة زرقاء لحصان جامح فى نهر.

أعلى اللوحة خيوط كثيرة لعنكبوت بها حشرتان، قلت: لا تؤاخذنا..

قال: كلهم يتهربون منى.

رأيت فرج وابن عبادة يتهامسان، وحين اقترب منهما أدرك على الفور ماذا يحيكان؟ فى المرة الأولى قلت لهما: يبحث عن صديق

فى المرة الثانية: عض فرج على نواجذه؛ فبانت غمازتاه.

فى المرة الثالثة: جرت ثعالب وفئران فى وجه ابن عبادة،

واختبأت فى عينيه وفى كل مرة أجدنى ـ رغمى ـ أتجنبه، وتطفو فوق بحيراتى زوارق التعلل والأعذار... وكان يحملق فىَّ، اعترتنى رعبة زلزلت مفاصلى، وغيمات توالت هائلة، طويلة وملتوية مثل طريق عريض موصل لغابة.. لم أدر ماذا أقول؟ كنت قررت أن أعتذر له بمرض أبى، أو انشغال أمى على أخى الذى فى العراق أو كثرة سفرياتى التى لا تنتهى، ولا تدع لى فرصة الراحة بنومة هنية، وأننى كما يرى أخى، متعب ومنهك، ولا أتحمل حتى الجلوس على كرسى؛ لكن نقرات الباب التى أنتظرها بعدما طالت، التى أتوقعها بعد دخول أى غريب أو صديق لدى أنستنى ما اعتزمت عليه.

أغلقت الباب ورائى، وأنا أقول لزوجتى باستياء وبصوت ضعيف: ـ أين الشاى؟

أشد ما يغيظنى منها عبستها.. أشعر أن الكلام يخرج من أنفها لا فمها، وأن القطنة المبلولة إذا ما وضعت لحظتها على فتحة أنفها لا بد وأن تتشف.

ـ أنا (جهزت) الأكل.

كان على الصينية الألومنيوم طبق ملوخية، وبعض الليمونات المالحة، وحبة طماطم واحدة، قطعتها فى ثلاث أو أربع دوائر. وشقتين خبز.

ـ لا شك أنها طيبة...

قلت فى نفسى وأنا أحمل الصينية وكوعى يداعب القطتين المتنمرتين فى باحة صدرها: صدقينى أنا حتى لا أعرف اسمه كاملاً.

وخزتنى نظرتها الحانية، قلت: غصبًا عنى.. كان قد خلع بلوفره الأزرق الغامق لونه، ورماه جانبه.. وضعت الصينية قدامه لم ينتظر دعوتى، ولم أقل له (تفضل) خيل لى للحظة، أن أيادىَ ممتدة أمامى، ربما ثلاثًا أو أربعًا سحبت يدى، واعتدلت، كانت يداه تتسابقان ما بين هبوط وصعود، قال: هات بصلة..

النجوم حبات نمش تغوص فى وجه الفراغ، والسماء لوحة لقطيع من الثيران الداكنة تكاد لا تبين.

قلت: بصل..

قال: آه

ثمة نقطة ملوخية سقطت من جانب فمه فى خيط لزج متواصل، مسحها بظاهر كفه.. مرة أخرى أبتلع ريقى الناشف، ولسعة برد قوية تقرص جلدى عابسة، زوجتى لا تزال، متكومة فى وقفتها أمام «البوتوجاز»، وأمى التى على ما يبدو سمعت برطمتها؛ فصعدت تغسل الأكواب، وتهدئ من سخطها الفوار، أربع سنوات،

مدة كفيلة لزوجتى لتعلم حياتى، وتسبر غوار طباعى؛ لكن رأسها وألف سيف أن تشدنى لها.. ما فائدة الأصدقاء فى زمن لا تصدق فيه.. حتى نفسك؟

ـ عاوز حاجة؟

مرتبكًا بعض الارتباك، قلت:

ـ آه ... لا..

ربتت أمى على كتفى:

ـ ادخل مع ضيفك..

ما إن دخلت حتى بدا لى الأمر مروعًا وفظيعًا، ولا أعرف ماذا تملت؟ أو كيف صرخت؟ غير أن أمى رفعت وجهه من طبق الملوخية، ومسحت بذيل جلبابها ما علق عليه:

العينان مفتوحتان، والشفتان مضمومتان، وعلى جانب الفم تتناثر رغاوٍ مختلطة ببقع خضراء صغيرة.. هتفت زوجتى بلهجة فزعة:

ـ الملوخية مغلية.. كلنا أكلنا منها...

صاحت أختى مرتجفة: كولونيا

أمى تمارس طقوسًا بالكاد أتذكرها: بيدها تدعك صدره

وصدغيه تم جبهته وتتمتم:

بسم الله الشافى. العافى. المنان. رب موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

أقشعر جسدى. وغامت عيناى.. كان يخيل إلىّ أننى أراه: فى هدوء يجلس، يداه متشابكتان على ركبتيه الموضوعة واحدة فوق أخرى، ينفث همه فى دخان سيجارته، ويتفحصه بوثوق وطيبة مثل عيون الكلاب.

فيبدو فى آن واحد بائسًا ضجرًا مقلقًا ومضحكًا... يقول ولا يهدأ، يحكى ولا يمل؛ ثم يسعل ويبصق فى خرفت قدين باهتة؛ ثم ينظر إلىّ وعيناه التهبتا بفعل الذكرى.. مثلما كان فرج وابن عبادة يصفانه ـ شكل رجل ـ كنت أحاول أن أتخيله واقفًا جامدًا لا يرد، وأنا أسوق الأعذار تلو الأعذار متهتهًا وفاصحًا ومرتبكًا، لماذا أنا دون كل الأصدقاء؟

بابا.. بابا.. الدكتور...

أفقت على صوت ابنى والدكتور الذى دخل مربتًا ومهونًا ومؤكدًا: أن لا شىء، وعكة صاحبتها إغماءة، كل ما فى الأمر راحة

يلزمه راحة تامة...

أي الراحة تلك وفى هذا الوقت؟!

ليسترح، ولأذهب أنا حيث كان يجب هو أن يذهب...

كانت نظراتى متصلبة عليه، مهزومة تحت وطأة ما ترى.. شىء ما بداخلى ينفجر، كان العجز والاندهاش والغضب عجينة واحدة موقوتة بفعل اللا فعل: كيف تتصرف؟

أمى تقول: سريرى يسعه وأنام ـ أنا ـ مع البنات.

أختى تقول: البنات فى الصالة والحجرة خالية له.

ترد زوجتى: سرير صاحبه أولى به وأنزل أنا معكم.

لم أكن فى حاجة إلى المزيد.. لى الآن وحدى القرار.

رفعت وجهى إلى السقف: ثمة ظلال متداخلة، تتحرك لترسم لوحة لسيوف متماوجة، متقاطعة تتبدل وتتضاعف أشكالها.. قلت: ساعدونى. من تحت إبطيه، من جانب الرأس، لففت ذراعى حوله ورفعته. وحملت أختى من الجانب الآخر عند قدميه. وساعد ابنى معى، وأمى بيدها فى المنتصف كنت أرقبه خفية. لم يرجف. ولم يهتز غير أنى اعتقدت فى بادئ الأمر أن شخصًا ما مثله قادر على ما يفعله..

محض فرية

«ابن الحرام» لم يقولوا لى إنه بارع إلى هذا الحد، وإنه أثقل من سواد ليلة مضنية.. فى الخارج كانت الريح تزداد وتئن.

قالت أختى: مسكين.

عدلت أمى من وضع قدميه على السرير وخلعت جوربه، ولم تتأفف من الرائحة النتنة، التى عبقت المكان،. ولم تشح بوجهها.. سمعتها تقول؛ ماء

ربما فى الوقت نفسه بالإحساس نفسه: وضعت زوجتى إناء صغيرًا مدورًا أشبه بالصينية، البخار منه يتصاعد ممزوجًا برائحة السافلون.

كان على كتفها فوطة، ووجهها عجينة من الشفقة والذعر: ظللت برهة أتأملها، وأدير بصرى فى الغرفة مضطربًا.. بدا لى كأننى أراها للمرة الأولى السقف المغبر، الدولاب المتهالك. باهت الزوايا، التسريحة العمياء التى تحطمت مرآتها، ولم يبق منها غير إطارها الخشبى المحفور بنمنمات شجرية، الكتب المكدسة على الكومودينو وفوق الأرفف خلف الباب فيما يشبه المكتبة، الأشياء المتناثرة.. كانت أمى تقول؛ للصحاب عوزة.

تقول زوجتى بحركة لطيفة من عينيها وصدق حقيقى بجهلها:

كل هذه الساعات، مع بعضكم، ولا تزهقون.

أقول وأنا أكتم شعورًا يجتاحنى.

يرضيك بوزي فى بوزك

أنظر إليه؛ أمى بطرف الفوطة المبللة تمسح الوجه والقدمين وتتمتم: يا شافى... زوجتى تشعل عود بخور وتثبته فى شق فى إطار التسريحة، والصغار حولى يحدقون، ما بالى واجمًا، خائفًا، أنا المضيف، لا بأس أن أتحرك، وأشكر أهلى، وأدعوهم للنزول، وأعود إلى ضيفى الممدد على سريرى؛ فأرى شريطى الحلفاء الممتدين فوق عينيه يضيقان الطريق العريض الموصل لغاية رأسه.. أهتف بقلب كسير: اصح.

لا يتقلب، ولا يفتح عينيه، أسب فرج وابن عبادة، وألعنهما بدل المرة ألفًا وألعن نفسى وكل الثقلاء وأغوص فى بحر الصمت. يقول ابن أختى، الأصغر لثلاث بنات، وابتسامة شاحبة على شفتيه، جدول الطبخ تغير يا خال.

أتغابى.. يكمل: بعد الملوخية مدمس؟، ترد أخته: عندنا ضيف يا فالح. توغلت فى نفسى. أمواج الأيام تتقاذفنى، أقاوم عجزى؛ كأننى فى لحظة قد نسيته ـ متى جاء عندى أو ألفته؟ كم يومًا مكث سيان.. مرعوبًا وخائفًا أنكمش. فى اليوم الأول؛ دعاهم لزيارته.. التفوا حوله، على شكل نصف دائرة، فوق الحصيرة البلاستيك: ظل برهة بهيئته المضطربة يحدق فيهم ثم انشغل بالكلام.

ـ هذا ما لا يخصه.

قلت فى نفسى وأنا أقترب ـ منهم ـ بوجه عبوس لم ألق السلام، ولم أطر فى وجه أحد، وبموت متردد، مثقل باكتئاب تملت: الغذاء. قلى عندما جلست، دون أن يهتم: سبقناك. سألتهم فى تردد، أومأوا بالإيجاب.. كأن الأرض فوق كتفى، أحاول القيام، ترتشق ضحكاتهم فى ظهرى.

أجاهد.. كانت وجوههم مألوفة، وابتسامتهم تتسع وتتسع، انتابنى إحساس بأننى يجب أن أتمعن فيهم بغية الاطمئنان، رأيت فرج وابن عبادة ومعوض ومحروس وحافظ أليسوا ـ هم أصدقائى؟! من فرط دهشتى بصقت أف كبيرة. اختلط داخلى

شعور الخيبة بالاشمئزاز، فى محق مكتوم صرخت: كلاب.. كلكم كلاب. فى اليوم الثانى: حرنت فى الذهاب إلى عملى، وركنت لدفئى، وناديت زوجى: كانت تمضغ اللادن ـ ولعلمى أنها لا تحبه وتتقصع فى شكل لم آلفه منها.. دعكت عينى، وعجزى يغلى، سألتها عن ابنى لم ترد، وسهام نظراتها، لم تزل تنشب فى صدرى، قالت: أمرك، فى كلماتها لزوجة وحل تعوق السائر.

شخط: تعالى. أشاحت بيدها فى وجهى؛ لو ربنا يريحنى منك ومن عيشتك.

فزعت، وغشينى ألم لم أقدر على احتماله أو لمه، حين وجدتنى غير قادر على الوصول إليها ليست امرأتى هذه ولا هذا صوتها قلت: خذونى.

وجدت نفسى وحيدًا فى قاع صفصف أغلب الظن أنها بيتنا القديم.

فى اليوم الثالث: قلت لأمى: ما الذى حدث؟! رشت دموعها ونثرتها على جروحى، ولم تتكلم.

قلت لأختى: قولى لى، يا بنت أبى، وأمي.. ضيقت ما بين حاجبيها، وانتفخت: هو زوجى، خبطت رأس مجريات الأمور تجرى؛ فحاول أن تلاحقها، قلت فى نفسى وأنا أحاول كبح جماحها حتى أقف على بينتى رغم أنها واضحة كشمس أكتوبر أو برد فبراير الحزين.

كم يومًا مر ـ لا أدرى ـ

فى اليوم التاسع؛ خطبت فى أولادى وأهل قريتى وناسى على منبر خيبتى. قلت: هذا ليس ضيفى، قالوا: أكرمته، قلت: طمع فى كرمى، قالوا: تزوجته أختنا، قلت: ليس للحمل أن يصاهر ذئبًا.

قالوا: سبقتنا، صرخت وضعفى فى حلقى يتقاطر مرًا؛ أنا أولى منه، قالوا: لك زمان وها زمن آخر ـ هلعت ـ هذا عدوى.. كأنها آخر حجر أرميه فى بحرهم.. لم تتسع دائرته. ولم أسمع له طك قوية صاخبة.

تفرقوا من حولى ـ جاهدت ـ وجوههم تحاصرنى

بضحكات مائعة.. بلعت ريقى. سخونة لافحة يكاد صهدها يشوى أذنى.. أهزه برفق.. بقوة.. بغيظ.. أرجه.. يتقلب ويفتح عينيه.. على وجهى أمارات التحدى، غصبًا عنى.. كانت أمى تقول... أشيح برأسى.

أتماسك .. قلت: قم.

قام.. لم أخجل من التوقيت، أغلقت باب الحجرة بعصبية كأننى أستر نفسى.. لزم الصمت.. سار ورائى.. لى الآن وحدى القرار.. فتحت باب الشقة اندفع هواء بارد له رائحة كانت تباشير الصباح تنساب فى نهر السماء..

التفت إليه؛ يحكم ياقة بلوفره الأزرق الغامق لونه حول رقبته، كنت أرغب الآن فى صفعه أو ركله أو أمد يدى وأخرج عينيه وأدحرجهما أمامنا.. غير أنى بإصرار واستهانة دفعته للخارج وأنا أشير للطريق.

إلا المتقون

ماذا دهاك؟!

ما الذى يركبك حين ترى واحدة منهن أمامك أو على مقربة منك؟

أى موجة تلك التى تغرقك؟!

يدق قلبك بعنف حتى يكاد يهوى من مكمنه..

تشع من عينيك كهرومغناطيسية جاذبة أو منجذبة؛ فلا تدرى هل خرجت من مدارك أم هن اقتربن منك لهذه الدرجة.. درجة التلامس، فقط التلامس؟

وحين تسألك إحداهن.. وماذا بعد؟

تحتار فى أمرك.. تحترز بكل ما أوتيت من براءة، وتدارى مخادعاتك.. تتدثر بملامحك، وحين يظهر عجزك جليًا تحتمى بصمتك، وببعض مما كان فيك؛ فتبدو كالأبله، أو كالنافر، أو الحرون.. سيان..

لا شواطئ لكلماتك، ولا زروع فى أرضك..

أنت الآن المهان!

هل نشف عودك وجفت أوراقك؟

هل أعلنت ذنبك لنفسك أو لهن؟

شكل رجل.. لا هو بالطويل ولا القصير.. ديكان على كتفيه.. لا يكفان عن الصياح.. وما بين الديكين غابة تضعضعت أرجاؤها من فرط الريح.

ـ ها.. زعلت؟

تعود عصافيرك الجارحة، الشاردة، وتنقر نار الرماد..

ـ فقط التلامس.

من ذا الذى أخذ العهود والمواثيق بين الأجساد؛ فتدور فى حركة لا إرادية، وما سكنت، وما ملت، وما نحن بقادرين على صدها ـ إلا المتقون ـ أو ردها لمدارها.. الزعفران والمسك، وكل أنواع الطيب تحملها الريح.. والديكان نهمان على مقربة منهما حفنة من أطايب الحبوب.. يا خفى الألطاف.. برنا بسترك، واحمنا من مدارات الجذب.. فما كنا بقادرين..

ـ فقط التلامس.

ونس العيون يرمى شباكه، وصهد الأجساد لف المسافة المحيطة .. يداك تمتدان.. تمرقان تحت جيب «الإيشارب».. تفكان زر

البلوزة وحين ينبثق بياض الصدر، وترى فوران الانطلاق.. تتماوج فى وجهك الطفل كهرومغناطيسية الجذب؛ فتبدو آخرًا لا تعرفك.. ترتد عنك، بخفة، وتلم بقبضتها صدرها؛ وهى ترغرغ: وماذا بعد؟

وماذا بعد؟!

ماذا دهاك؟

لا هى اقتربت، ولا أنت كففت عن الدوران.

هزهزات للروح

* النهار!

قيل إنه طوى نفسه على نفسه؛ فبانت سماؤه فى ظلها كليلة: سجادة كابية اللون، يتتالى وميضها ـ فى اختفائه ـ من تلقاء نفسه، كأنما الظاهر فى الباطن والباطن لا إيلاج ولا تكوير.

فلما كان ذلك.. يا نهار؟

أهو دمع القلب قد أغرق عينيك؟

أم يا ترى.. الروح فى الروح ناحت، ففاض القوس، واستعصى على التبيان؟ آه ..

الهابط على القلب، لا طاقة له به؛ فلا نبض ولا هزهزات.. للصمت ألف يد تدق على الأوردة؛ فيرتبك الداخل منى.. أنغز الدمع فلا يطلع، أجمع ما تبقى فى سكوتى، لأحدد ـ حتى ـ ملامحى؛ فلا أقدر.. غير أن العينين مفتوحتان على آخرهما..

* المكان!

ربما كان فى أقصى المدينة أو على أطرافها، فى ذات يوم.. إنما الآن فى القلب منها.. سور عال، كلح بياضه، أو غبَّرته عفرة الطريق به فتحة واحدة عليها باب قاتم ـ كتب عليه آيات من القرآن غير مقروءة ـ يفتح عند المجىء.. زحام هادئ لبنايات متباينة الطول؛ لكنها ذوات شكل قد يكون واحدًا.. يرتفع فوقها ـ كيفما اتفق ـ شواهد من طوب أو طين على بعضها فتحات صغيرة بعضها سد بالطوب والأسمنت، وبعضها بأبواب من رقائق الحديد عليها أقفال صدئة.. قليلة شجيرات الفايكس والصبار المتناثرة فى الطرقات الملتوية الضيقة؛ فتخدش صمت المكان ببقعها الخضراء.

ـ من يجرؤ الآن على الكلام؟!

الحفرة فى الأرض تحت إحدى البنايات ـ قد لا تتعدى المتر فى متر ـ والتراب الطالع منها مندى..

أى دم قد رواه؟

أم يا ترى.. حنو الأرض على الأجساد قد بلله؟

ها هو الملفوف ـ المربوط عند الرأس والقدمين ـ يهبط .. فيتلقاه القابع فى الحفرة ويدخله فى ظلماتها؛ ثم يخرج، ويأمر الواقفين:

«هيلوا التراب»

هكذا ببساطة يقولها: «هيلوا التراب»

سأغمض عينى على اهتزازاتى..

أننى هادئ ومتماسك، الذى فى التراب الآن ليس سواى!

* الوقت!

استحوذنا على ضجرنا، كل منا فى مكانه، «عبد الحافظ» وأنا قال: «أنت عارف أنه طيب».

قلت: « آه»

وجرت ملامحه فى عينى ولم يتوقف قبالتى:

سمار مفتوح كنهار يلج فى الليل أو ليل يتكور فى نهار، يضفى عليه شاربه الكث سنوات أكبر من عمره.. يضع يده على فمه.. ربما ليخفى بياض أسنانه أو ربما يقلل ـ قليلاً ـ من بسمته الحيية ويقول: أنا معك غير أن ملامحك ـ تفرش ابتسامته وجهه ـ قاسية إلى حد ما.

أقول: «ضاعت براءتى»

وكأنما أصابتنى عدوى ابتسامته.. يقهقه.. ويقول: لكنك طيب.

أى طيبة تلك التى تدفع الآخرين لمهاجمتك؟

وأى قسوة تلك المستوفزة دومًا؛ فتفشل فى إرضاء جميع من حولك؟

ـ هه .. أين أنت؟

كان الصوت حاسمًا ومحبًا.. قلت: «معك».

قال: خذ عندك، كان معى على الخط حالاً، لم يتقاعس، ولم يخذلنا.. فقط هاجمته نوبة صدر فأقعدته.

سكت..

رد: «أنت عارف أنه طيب».

قلت: آه

فى الصباح..

جاءنى صوته مخنوقًا ودامعًا

فى الظهيرة..

كان يهيل التراب المندى وحبات مالحة تنحدر منه.. جـ.. مـ.. ا.. ل.

نهار ومكان ووقت..

غصة فى الحلق.. هل تعبر؟!

هل تعبر.. يا جمال؟!

المهادن

١- نخب الجوع

كانوا أمامى:

القوام الفارعة ممصوصة الدم، الوجوه المحروقة مسحوبة على هياكلها.. كائنات من عظم وجلد، تتدحرج فى نحيب مكبوت، بفعل الريح، نحو قصاع الطعام وماء الخنوع.. تئن الأرض، المستثارة، من جرجرة أقدامهم التى لم تعد لفرط إنهاكها.

فى هرج تتواثب أعينهم، تشد شراشف الوصول إلى تخوم الشبع.. وعندما رأت، ولم يك لها سلطان على الاحتمال، تغمضت.. ناخت الأقدام وتقرفصت، مثل القروض على نهر يبس، كأنها تصلى أو تتداخل فى أجنتها، «والقرداتى» مروضة شقراء، يلمع لحمها، المكتنز، تحت وهج الشمس.. وبمغرفة من خشب تصب المرق فى الصحاف البلاستيك، وعصاها مغروزة فى الرمال.

مضغت تبغ عجزى، وقلت للذى هاجمنى أو هكذا استربت: نم.

وتملكنى الذعر.

٢- مهادنة

الفراغ غابة.. ثمة أشباح على أشجارها تتغرغر: تخرج الجرذان، من جحورها، تتقافز.. تطل الثعابين وتنساب فى ليونة مخادعة، على قارعات الطرق، ملتفعة ببراقع الغدر.. والوطاويط فى المحميات تتكاسر على لعق الدم.. تتوافد بنات آوى، عاريات، فى عين الشمس، تنصب فخاخها للذين لا يرون.. (كنت أراقب - أنا المهادن - على تلة فزعى: ماذا يدور فوقى ويحدث بين جنباتى؟ ولمَ؟!)

أسراب من البوم تحط شباكها.. فى لحظة عواء يمتزج بالسعال.. مسوخ أشباح تظهر وتختفى، تشق الغيوم، لها رائحة الصنان - والعالم قد هيأوه لطينة أخرى مموهة بالأمم والشرعية والجوار - تتفت الصرخة فى الحلوق.. تتناثر أشلاؤها فى الفراغ، وحين تهبط للأرض تأخذ شكل بنايات تنهار وجسور تتهاوى.. يهرع الأهالى مذعورين فى الطرقات.. جثث تتساقط تلو جثث.. تنفجر نوافير دخان.. تغمض السماء عينيها.. تتوالى صور لطيور نفقت، وعيون، قادرة، تسيل منها المساحيق.

(أيها المهادن على تلة فزعك هل تفهم؟!)

دفست وجهى فى راحتى.. وكانت العاصفة قد هدأت.. فككت أختام كتابى، نفت الغبار، فتحت ورقة ودخلت:

مدت لى يديها شهر زاد وكانت تبكى.. تنسدل دموعها على كتفيها، وتنزلق للأرض فتخرق مكانها..

ولم تبح.

فتحت ورقة أخرى ودخلت:

هرعت إلىّ الحيوانات، وتكومت تحت قدمى؛ ثم نامت ملمومة السيقان وكانت ترجف..

انقلبت ورقة لحالها ودخلت:

كانوا يتقاسموننى فيما بينهم..

قلت لنفسى: متى أفهم، عندما تصير كل قطعة منى على جبل وأعود عبدًا؟ انتفت، فيما كان الدم تحجر فى مقلتى..

قال الذى هاجمنى بغيظ:

ـ ما بك؟!

كانت حانية، منه وخشنة.

قلت وقد داخلنى الريب:

الآن فهمت.. الآن فهمت.

٣ ـ موت

نهار غائم.. نسوة متسربلات بالبكاء، وعذارى نزعت جلودهن عنوة.. جند يتشممون فوهات أسلحتهم وينفخونها.. تدخل عذراء، متخفية فى زى غزالة، لها أريج الشرق، تعدو يمينًا يصدها الجندى، تعدو يسارًا تتخبط فى النسوة والعذارى.. وحين تتعب تغرز قرنيها فى زبد السماء..

«تعرف أن حتفها الآن آن».

يمتطى الجند العذارى، يتجشأون الدم، مصفقين لفارس أشقر يدنو من الغزالة، وقبل أن يشحذ حربته ويمتطيها ينضو عنها جلدها قطعة، قطعة، ويعاين خريطتها؛ فتتبجس النيران من عينيه

العذراء الغزالة تتشظى..

والنسوة نائحات فى أنين مكتوم..

والفارس الأشقر يغمد حربته..

وعيون العالم ترمق خلسة ـ فارس الوقت ـ وهو يحيى الجند بحربته المدلاة منها رؤوس كثيرة ـ كانت ـ لعذراوات.

«فى ذيل اللوحة إمضاء: أعمى»

تلفت حولى، وحيداً كنت..

السماء غائمة، وزخات المطر تصرصر فى أذنى

اقتلعتنى رعدة..

وأنا أخفى بللاً..

مالحًا..

تحدر حتى فمى.

الوريث

يمم وجهك دوماً شطرك.. لملم ثوب مرائيك

وتعلم فى البدء جريمة ما ينتهكون.

سماء رحم: فى المدى يمامات تراوغ الريح.. تحتشد كائنات الروح.. تشهد بانبهار حضور المجىء.. تتأود، تغرز الأصابع الواهنة، فى طين الأرض تحتها.. تتوه الصرخة فى فضاء الحلق.. على مبعدة، ينثر نجم فتات ضوئه؛ فتتسرسب فى الجهات.. غبش بارد يلف المكان.. تتحاشى النظر إلى محفتى الغسل والنعش اللتين تشاطرهما المأوى ـ عشة أشبه بغرفة ـ جدرانها من بوص الغاب المدهوك بالطين.. ظل شيخ الجامع يدعو لها جمعتين على الدوام.. قامت امرأة العشر بحش البوص، وتبرع شفيق الحانوتى بدهكه.. ربت الحاج فهمى على جذع شجرة الجازورينا.. وضم جسده لها: وعلى جميلة المخمرة.

أفرع الشجرة العروق تئز.. يدمدم الصمت.. تتلوى.. الريح يقنص الفضاء.. وقطيع اليمامات تزرف الخوف..

من أين لها بالصراخ، والحلق جف؟!

ليس لها الآن غير الابتهال.. للدم رائحة حين يفور.. يمامة.. يمامة.. يمامة.. تتساقط.. تشكل جثثها بساطًا.. لين الملمس للقادم..

يدور الألم فى المدار.. بيدين مرتعشتين تعافر فى التراب..

« يا رب».

ترقص الزعابيب وتتراكض متباهية.. ينسكب من بين أفخاذها الماء..

تشق العنان صرخة أخرى رهيبة..

«يا رب».

كان يستل جذوره ويتدلى، منسكبًا، وضيئًا، خفيفًا.. لا يعلم ما الذى يواجهه.. ينظر مثلما كان أبوه ينظر: «مجول» العفيفة.. كيف طوت أبجديتها، تضاريسها، تخومها؟!

ـ آآه .. شكل رجل، هكذا انحدر، منتصبًا، جليلاً

ثمة وجع، نبيل يبسط يديه على الوجه، فيحيل بياضه إلى دكنة..

يتمعن حواليه.. لا يرى حراسًا أو موائد.. غير أنه يشعر برائحة تدخله ولا تخرج منه.. يدقق النظر.. يلبسه الارتجاف

بصرك يسبق خطوك .. تقيس الامتدادات .. تلمح البيوت فى ارتفاعاتها وانخفاضاتها : غزالات موشومة بالأسمنت ، تحاصرها النيران ..

واجمًا تتفحص:

ترسم «مجول» العفيفة مدنًا وقرى مفتوحة الأبواب للشرائع المراوغة.. يخترق فارس مهيب، على كتفة بشارة الخلود، كوة الأفق.. مطأطئ الرأس.. يهبط على مشارف البلاد ـ التى سوف تعج بعد حين بالكسالى والموهومين، التى يعد حين تصبح مرتعًا ومقصلة.. وقد تكون مقبرة، فردية، وجماعية، لا تصون الوريث.

ها أنت بدأت الانشقاقات ـ يا وريث المواجع ـ تحت شجرة الجازورينا.. أشهرت ارتيابك فى مجول وناسها..

وطينة العالم الجديد ـ التى لم تتشكل بعد ـ تتجشأ أيقونات عجافًا.. مهدورة بالتكهنات.

ـ لماذا لا تصرخ، إذن، يا سيد جميلة.. أم خطر ببالك أن تدخل مجول سهوًا؟!

الغيوم على مهل تتداح، رويدًا، رويدًا..

ينبجس فى السماء ضوء يأخذ شكل يمامات تراوغ الضباب، وقبل أن تحط على شجرة الجازورينا.. تطل امرأة وعلى رأسها طست ماء غسيلها.. فى الوسعاية تدلقه.. يتناثر رذاذه على جدران العشة.. ويطول السيد؛ فيتقلب على صدر أمه.. النائمة فى دمها ومائها.. يمد يده، اللبن / الجمر..

كيف استطالت هكذا لتمس المرأة من رجلها.. تقعى مولولة.. مدهوشة بعراء القلق.. لا بد أن الجنيات أرهقتها «توبة .. ترمى الماء بالقرب من عشة الغسل والنعش»

ينطلق من مئذنة الجامع أذان الفجر..

سيد على صدر أمه.. ومجول ـ قيل فى هذا اليوم بالذات ـ كانت مشغولة باستقبال الوفود.

قيل: المؤتمر الدولى للسكان

قيل: فلول الراجعين المطرودين من الكويت

وقيل: أجانب من كل جنس ولون

والعُتبى على القائلين.. والمرأة الجارحة المجروحة لم تجد من يشيعها لمثواها.. وجميلة هادئة، ساكنة، لا روح فيها..

لتفرح إذن أو ابك:

اغمر كرامتك ـ ولادتك المحتضرة ـ فى آتون واقعك لتحيا..

يا سيد جميلة.

للخنازير

الذين هم فى مثل سنى، والذين لهم عين مثل قلبى.. لا بد وأنهم يدركون حتمية التلقى لإشارات الآلهة.. (نظرًا لقلتهم).. فتراهم هكذا يرسمون فى سمائهم: بيوتًا كثيرة مقفولة الأبواب والشبابيك.. ملفوفة بملاءة غبشية.. (تحسبها بعد تفحص وإمعان غزالات مقعية غلبها التصحر. وعلى البعد تتبدى شجرات معطوبة الجذع مصفرة الورقات يبست على أفرعها الواهنة، بضعة عصافير أو غربان. (لا يمكنك التمييز بينها).. غير أنك لا بد أن تلحظ سهامهم الشاردة.. فتتلفت لترى: نهرًا غاضت منه ماؤه فبدت قاعه على عروشها. (ربما لأنك لم تره جيدًا أو لأنك رأيته بذلك الإلحاح، الأخرس، الثقيل، للم الشذرات فى محيط الرؤية)

تصاعد عليك موجة باردة، ولزجة، لا تدرى من أين ؟

حتى الآن.. لم يكن عقلك فى حاجة إلى إعطاء الأوامر. فهكذا قد اعتاد كثيرًا، دونما أية بوادر أتنزع نفسك من عتمتها؟ ظل ضوء يفترس القاع مرة أخرى، كومة من الجثث المهلهلة تنقلب بين الفينة والأخرى إلى صفائح صدئة سرعان ما تلبث أن تعود إلى حيوان خرافى، معوج.. وملتو...

(قد يكون أفعى، أو طريقًا أو سردابًا داخل هرم أو يمتزج كل شىء فى لا شىء)

يفجؤك الذين يتدلون من خارج الخط الموهوم: الملامح إلى حد كبير، لأول وهلة، تشبه خنازير فى عراك معلن وبرىء.. (ما زال كل شىء أشبه بالشذرات) تنتبه لعجينة التناقضات الغريبة فيك.. تدقق النظر..

(كم من عمرك مضى دون هذه اللمحة/ الومضة/ الوقفة / لفحص ما يعتريك؟!)

مرتعدًا، ومرعوبًا!

- إنهم يشبهونك.

كأن الزمان يتسع أو يتوقف.. كل الملصقات خنازير.. كل المكملات لأية طقوس نمارسها.. (أو مارسناها).. خنازير.. (ليس حبًا فى الخنازير)؛ بل هو نوع من الواقع لممارستنا المغموسة فى وحل التفاصيل.

- إنهم يشبهونك.

تتراص الشذرات.. بسرعة عجيبة.. تلقائيًا، كمكمل لبعضها، بلا هوادة أو حياء، أو توسلات.

الجالسون على مقهى ريش، أو فى الأتيليه والحرية ما زالوا مختلفين بين قصيدة النثر، وقصيدة الشعر. والمرتادون للحوانيت ومقاهى مجول يتناحرون بين وكسة الزمالك وهلاهيل الأهلى، والغائبون خلف الأبواب والشبابيك يمارسون طقوسهم المفضلة مع

فضائيات البوستر والدش ومواقع التواصل فى البحث عن ساعات ما قبل النوم .. (حريم مجول ـ والعياذ بالله ـ بعد طى السموات أصبحن غفراء فى الهيئة)

الآن تئز تروس عقلك الصدئة؛ ثم ما تلبث أن تعصف بعد حين.

(لا تزال الأمم المتحدة ومجلس الأمن تعقد جلساتهما الواحدة تلو الأخرى بحثًا عن مبررات أخرى، لعواصف أخرى لنزع رمال الصحراء)..

تستوفز حواسك.. (ربما فى الوقت نفسه، بالإحساس نفسه الخانق، ترفع يدك المقطوعة الأصابع وتوجه لكمة قوية.. فى محيط الرزية.. قد تصيب أحد وجوه الخنازير؛ فتتحول بفعل اللكمة... إلى ما كانت عليه.. ربما... وربما تستحلب عينيك الرؤية... فتقهقه..

بل وتؤكد:

ـ هذى اللوحة لخنزير.

الوقوف على ما يحدث

من بين أعواد البوص وحشائش الحلفا أطلقنا عيوننا للبر الثانى: غربان هائلة تكوم التراب، نسور ممسوخة صفراء وخضراء، تروح وتجىء ترمى أشياء وترفع أشياء، والجو مخنوق بالتراب ثمة آخرون يشدون أسلاكًا شائكة بمحاذاة الطريق عند شجرة السنط العتيقة كشك خشبى صغير، وأمامه برميلان من الصاج مدهونان، أبيض و أسود، باللون الباهت دغدغت أجسادنا قشعريرة خاطفة، مكثنا فترة دون كلام، وقبل أن تمتد قررنا الدخول... كنا فيما بيننا نقول إذا ما ضمتنا القعدة كل ليلة:

ـ شيوخ مجول ارتاحوا للنساء وللرقاد، وعلينا وحدنا مطاردة الذئاب والذباب وآكلى لحوم القرى: الفرجة وحدها لا تكفى .. عندهما استعرضنا بعض الأمور.

المصرف الذى أمامنا يحمل فى جوفه نفايات مدينة العمال من زيوت وشحوم بالإضافة إلى كونه مجرورًا، المعدية الوحيدة القريبة منا عبارة عن فلق نخل عريض موكول حراستها لخفير تخبن بيده خيرزانة وفى كتفه بندقية بلا خزنة.

تذكرنا يومًا حاول بلبل التخفى فى ذيل امرأة تعمل هناك، وكان نصيبه، ساعة أن خلع جلبابه أمامنا، عاريًا على مدار الساقية. خطوطًا حمراء، وزرقاء على جسده، النحيل بعدها داس بقدمه الصغيرة على دمعتين ساخنتين سقطتا منه، مشينا منكسى الرؤوس، فى حقل فول العمدة القريب انتشرنا، مضغنا حبات غضبنا، ملأ بلبل حجره بالقرون فكر أن يفعصها.

قال أحدنا: حرام.

أزحناها من الطريق فى الترعة، وضحكنا.

ـ هيه.. قلتم إيه؟

قال بلبل وقد بدأ فى خلع الجلباب.

طرنا إلى بعضنا، وهمسات البوص لحن جماعى مسموع، والبر الثانى يشغى بالحركة.

ـ وأين نستحم؟؟

ـ تفرج.

مد بلبل يده واستقبل أولنا، والثانى، والرابع، وكنت الأخير.

ناولتهم الملابس على دفعتين. قام بلبل بلفهما فوق رأس الثانى والثالث.

ـ اخلع.

اصطكت قدماى فى بعضهما.. قلت:

ـ أنتظركم هنا.

ـ اخلع.

آمره وناهيه.

تململت: سأنزل بملابسى.

الشمس تغطس وتقب فى بحر السماء، وقطع السحب الداكنة تركض وتتكاثر، والنسور الممسوخة تخلف وراءها على الطريق شريطًا من الغبار غامقًا.. تكومنا عند مصب ماسورة صرف.

كل منهم يلبس ملابسه ويلتفت إلى:

بين قدمى تساقط ماء كثير وأنا أحاول أن أكبح رعشتى بين أسنانى قلت: سأحرسكم من هنا.

ـ عند الخطر أعط إشارة.

قالها بلبل بعد أن انقسما إلى مجموعتين كل مجموعة بها اثنان ارتعشت السماء عبرت المجموعة السلك الشائك وتوارت فى حقل برسيم.. تلكأت المجموعة الثانية عند مرور سيارة من جانبها .. تماسكت وصفرت.. كانت العربة ترجع بظهرها.. بدأ بلبل ورفيقه جادين فى مشيتهما.

ـ أين تذهبان؟

ـ نعلف البهائم.

بجسارة قالاها .. ولم يتوقفا. رمقهما السائق بنظرة فاحصة ومضى. مهللاً قفزت وهما يعبران السلك. غابا عن عينى خلف تل من التراب، وحدى.

على الصمت المغبر:

رسمت هضابًا وتلالاً وأشباحًا بينهم، خمسة عساكر بجلابيب. يدخلون فوهة ويخرجون من أخرى ويعتبلون مدافع وصواريخ. ويركبون طائرات تداعب سعف النخيل المنتشرة فى المكان. هزتنى قشعريرة، الفرجة وحدها لا تكفى،.. تماسكت وصفرت .. لم أستطع تخليص جلبابى من السلك الشائك وحدى زجرنى بلبل. قلت بتودد: المشى جماعة أفضل.

اجتزنا حقل البرسيم وعرجنا إلى حقل القمح، وقفنا مبهورين: عشرات من الطائرات مرصوصة جوار بعضها مدهونة ببقع صفراء وخضراء، درنا حولها.. خبطنا عليها.. قال أحدنا: خشب.

لم يرد أحد.. صعدنا تلاً، رادار كبير بثلاثة أجنحة أدرناه كما لو كان ساقية قديمة تئز.. هس صوت منا:

ـ خشب.

جرينا نحو حفرة بها مدفع ذو ماسورة كبيرة.. تحسسناه.. ركله بلبل بقدمه وصرخ: خشب.

قلنا فى نفس واحد: خشب!

ارتعدت السماء.. ارتبكت.. علت زمجرتها وانشرخت الشمس.. فسقطت فى حجر سحابة هائلة.

على شاطئ المصرف وقفنا.. نخلع ملابسنا ونلفها على رؤوسنا.. بانت قريتنا ـ على البعد ـ عجوزًا وخطها الحزن.

فى الليلة نفسها، وللمرة الأولى، لم نجتمع.

ويطلع النهار

... وأدركت أننى لست منهم، ولا أشبه أحدًا فيهم.. قلت:

ـ لماذا إذن أكون معهم وأعيش بينهم؟ وكيف تسنى لى أن أحتملهم كل هذه السنين؟

طيبًا وودودًا كنت .. أسمع منهم وأواسيهم، وأكلف خاطرى دمعة أو دمعتين ، وأحيانًا أثقل على جيبى فأنفض ما فيه، وإن لم يكن أقول، وأقول، وأقول..

ـ «والناس بالناس وللناس».

قالت أمى ولم يزل صوتها معبأ فى صدرى..

كنت أبتسم وأجامل ولا أبخل على أحد بما لدى.. وفى كل مرة تدخلنى أحاسيس كثيرة ولا تتركنى إلا فى دعائى «أن يصلح الله الحال ويحسن المآل».

يا رب الصباح..

ويطلع النهار، صباحاته إلى حد كبير، متشابهات..

خائفًا أكون .. حزينًا وحائرًا .. ماذا أفعل لهم؟

لا بد أن أكون بينهم..

القلب واجف، والعين تدمع، واليد لا حيلة لها..

يا رب الصباح ..

الحجارة على الأرض نباتات مجذوذة الرأس، والجنود بمعداتهم يسحلون الأطفال والنساء والشيوخ، والدخان يتصاعد من كل صوب..

أغمض العين .. تزداد الغيوم..

أبى يرمى أمى بوابور الجاز.. أمى تجرجر جارتنا فى الوسعاية وتنزع عنها سروالها الصغير .. يتعارك أخى مع أختى وقد صبغت وجهها بألوان فاقعة.. تتدلى من الشرفة المجاورة ساكنة الجوار وقد فتحت صدرها على مصراعيه.. يقول العمدة فى المندرة «الدنيا تغيرت يا ولاد.. أمال».

يا رب الصباح ..

فى الشوارع أدور .. على النواصى أزعق .. بكل ما أوتيت أزعق .. يطلون من النوافذ ، ومن الشراعات، ومن فوق أسطح البيوت:

أنادى: لا يسمعون..

أنادى: يمصمصون الشفاة..

أنادى: ينسل الأولاد من الفرجات..

أنادى: يلتمون، ويضحكون، ويشيرون تجاهى ..

لا بد أننى أغضبهم إذن .. ألم نفسى على نفسى، أدخل من باب خيبتى، أقف على رأسى قدام الذى ينبح علىّ..

يرن صوت أمى المعبأ فى صدرى «الناس للناس وبالناس».

أعاود سيرتى، مكلومًا ودامعًا .. أحلامى العريضة محبوسة بين فكىّ .. وسط زحام الناس أصرخ:

«المسألة ضرورى لها حل .. والحل ليس بيدى.. وحدى»

يهزون أكتافهم .. أصرخ .. يحوقلون .. أخبط رأسى فى السماء التى لا أطولها وأكاد ألمسها .. يولون لى ظهورهم ..

ـ لماذا إذن أقول؟

حزينا أبص عليهم .. أستغيث بهم .. دثرونى .. دثرونى .. أسعفونى ..

لا «مجول» أسعفتنى ولا ناسها دثرونى..

يا رب الصباح ..

(هذا الزحام لا أحد).

ـ وأنت ..

قهقه الفراغ واتكأ بجذعه على الهواء، فدومت الرياح، وحطت الزعابير.

«لا بد أن تكون».

ـ أكون ..

جريت إلى القنطرة «المدخل الوحيد لمجول على الترعة» .. الماء رغم رائحته العطنة ينساب، والأولاد ينطون عرايا .. والنسوة كشفن عن سيقانهن وأفخاذهن وبانت سراويلهن الباهتة وهن يغسلن الأثواب والمواعين، والمقاهى فتحت صدورها للرجال وللشباب ذوى الشوارب الخضراء يتفكهون ويتندرون بأحابيل النساء وأفاعيلهن، ويتشبهون بروكى والسوبر مان فى قنوات البوستر والدش الساقطة عليهم من السماوات ..

أنادى: لا يسمعون.

على عين القنطرة واقف.. الحرارة الطالعة من رأسى تخفف كثيرًا من ثقل جسدى..

ـ المسألة ضرورى لها حل..

أدرك أننى لست منهم .. ولا أشبه أحدًا فيهم .

ثمة فرصة أمامهم.. لماذا ينظرون ولا يسمعون؟

ـ ليس عدلاً أن تتنازل، تدثر بالذى ينبح فيك..

الجثث على الأرض نباتات مدهوسة.. والغربان فى السماء تنعق..

أبى مات، وأمى راحت، وأختى طلقت مرتين، ومجول سارت مرتعًا للوافدين الجدد من المدن المجاورة ..

لا رعد.. لا برق.. لا مطر..

خلعت جلبابى، رميته.. الأولاد يضحكون..

كنت أجرى خلفهم وأنادى:

المسألة ضرورى لها حل..

الكاتب فى سطور

الاســـــــم: إيهاب الورداني سيد أحمد سيف

اسم الشـهرة: إيهاب الورداني

المجال الأدبى: القصة ـ النقد

ـ عمل مديرًا لتحرير مجلة دلتا الأدبية التى أصدرتها جماعة رؤى الأدبية، مجلة كتابات التى أصدرتها ثقافة الغربية.

ـ عمل رئيسًا لتحرير مجلة غزل الأدبية التى أصدرها قصر ثقافة غزل المحلة، مجلة أقلام التى أصدرتها ثقافة الغربية.

ـ عضو مؤسس جماعة رؤى الأدبية

ـ نائب رئيس الملتقى «مرايا» الأدبي الفني الحر

ـ عضو اتحاد كتاب مصر.

ـ عضو نادى القصة المصرى.

ـ عضو أمانة مؤتمرات إقليم غرب ووسط الدلتا الثقافى.

- أسهم بورقات بحثية فى مؤتمرات دمياط - الدقهلية - المنوفية - القاهرة.

- رئيس نوادى أدب الغربية.

- عضو مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر.

- أمين صندوق اتحاد كتاب مصر حاليًا.

صدر للمؤلف

- على باب ناعسة	ديوان قصص ١٩٩٣
- الإرث	ديوان قصص ١٩٩٩
- العجز والرؤية	كتاب نقدى ٢٠٠٠
- مفهوم القص وإشكاليات البناء	كتاب نقدى ٢٠٠٦
- الرجفة والجمر	نصوص «كتاب مرايا» ٢٠١٧م
- الوقت الخؤون	ديوان قصص
- فصول البرارى	رواية
- إلى حيث أنا	رواية
- دوامات الاستقطاب فى القصيدة المعاصرة	كتاب نقدى

الفهرس

إهـداء ٥
فاتحة ٧
هـو ٩
لماذا أنا؟! ١١
تهيؤ ١٥
وفيما بعد ١٧
حنين ١٩
.بركان ٢١
لا عاصم منهم غيرى ٢٣
غضبة سومة ٢٩
شتاءات ٣٧
مشاوير الأسياد ٤١
رغبة ٥٣
روحان ٥٥

بـــرهـــومـــة ٥٧
وجـــــه ٥٩
عــــطش ٦١
رجفة ٦٣
مدارات ٦٩
دوامات للعودة ٧٣
بنت الكذاب ٧٧
ثمرتان ٨١
تحقق ٨٥
أحكام العيال ٨٩
علامات ٩٣
الطيبون ٩٧
إلا المـتـقـون ١٠٩
هزهزات للروح ١١٣
المهادن ١١٧
الوريث ١٢١
للخنازير ١٢٥
الوقوف على مايحدث ١٢٩
ويطلع النهار ١٣٥
الكاتب في سطور ١٤١

ثمة حارس
يفزعه الوقت

وحده يعرف .. وحده يحرس ..
منذ أن وطأ قلبه اليابسة
مفتوح العينين، شامخًا كنخلة، مشعاً وصامداً.
لا يعرف من أين جاءه اسمه، ولا أحد أسماه به
ملامحه تشبه الكثير
كأنه أنا، أو كأنه أنت، أو كأننا هو ..
غير أنه هادئ كأبله، أو مخلوق من عالم آخر ..
تراه حينًا يضحك وحينًا ينهنه
وحينًا يرسل عينيه في السماء، يقينًا ليتزود،
أو يشكو، أو يرنو، لفضاء كان ساكنه
قبل أن يهبط أو يطرد .. لا علم لي ..
لكن المؤكد أن ما حوله يعنيه
وما يراه يضنيه وما يفعله
طوعًا أو كرهًا ليس تحريضًا ولا بطشًا،
ولا طقسًا يتقنه بقدر ما هو نبوءة أمه
حين نثرت وجعها عليه: يابن بطني في عنقك طائرك
فلا تجعلهم يصحرون واحتك ..
واردعهم مهما تكالبوا عليك.

تصميم الغلاف/ نورهان عاطف

ISBN# 9789779119229

6 221149 051874

١٠
جنيهات

الهيئة المصرية العامة للكتاب